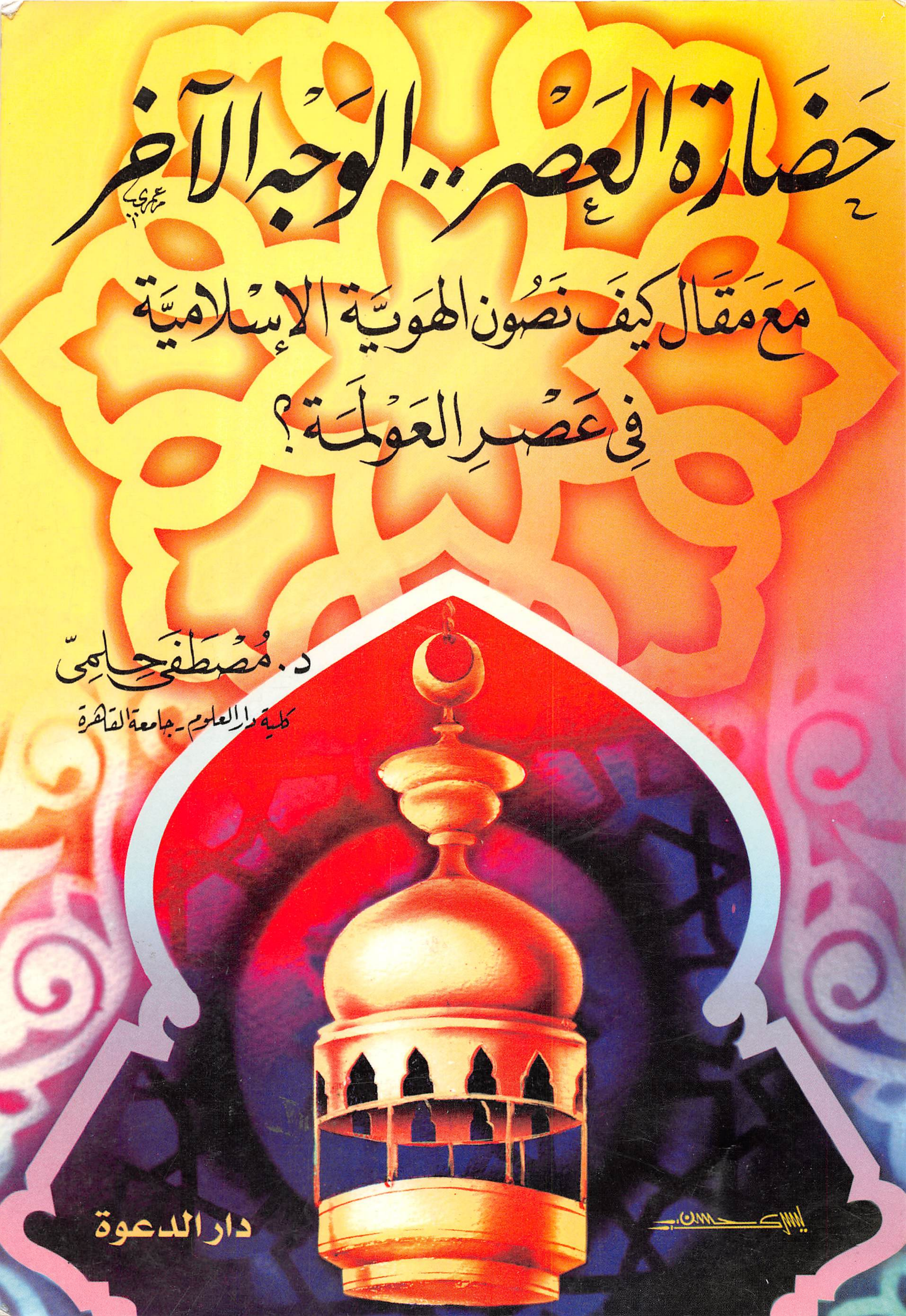

حضارة العصر الوجه الآخر
مع مقال كيف نصون الهويّة الإسلاميّة
في عصر العولمة؟
د. مصطفى حلمي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
دار الدعوة

هذا الكتاب

- يهدف هذا الكتاب إلى التخفيف من سيطرة نظرة الانبهار بحضارة العصر الناجمة عن رؤية أحادية للتقدُّم التكنولوجي، منفصلة عن حقيقة دوافعها وأهدافها المصطبغة بالتعصب العنصري، والمشوبة بفلسفة المنفعة العملية وتحقيق المصالح، ولو على أشلاء المبادئ الإنسانية بسبب الأنانية، والسعي لفرض السيطرة العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية متشدقة بشعارات برّاقة كحقوق الإنسان والحرية ووحدة القرية الكونية، بينما يثبت الواقع زيفها وخداعها لشعوب العالم الثالث، سعياً لالتهامه .
- تصويب النظرة لحضارة العصر مقدمة ضرورية لمعرفة الطريقة الصحيحة للتعامل معها .
- ثم يأتي مقال (كيف نصون الهوية الإسلامية في عصر العولمة) ليسهم في وضع الحواجز المانعة من سريان التغريب بأدواته المبهرة والذوبان في العولمة، لأن الحرص على اللحاق بمستوى العصر التكنولوجي العالمي، لا يستلزم إنكار الأمة لعقائدها وهويتها، فلسنا أقل شأناً من أوروبا واليابان والصين .

وبالله التوفيق

دار الدعوة

حضارة العصر.. الوجه الآخر

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ ــ ٢٠٠١م

رقم الإيداع القانوني
١٤١٦٠ / ٢٠٠٠م

الترقيم الدولي : 977-253-268-9

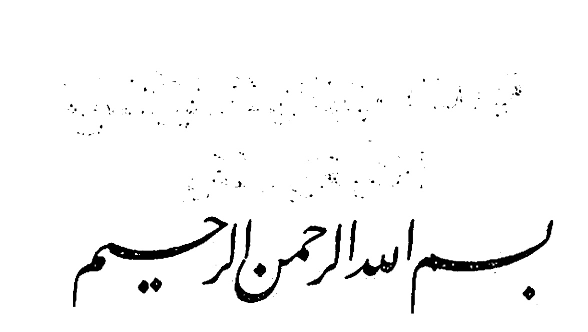
دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية. ت: ٣٩٠١٩١٤ - ٣٩٠٧٩٩٨ فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

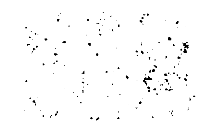
حضارة العصر.. الوجه الآخر

مع مقال كيف نصون الهوية الإسلامية في عصر العولمة؟

د. مصطفى حلمي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أما بعد،

فمما يثير الدهشة والعجب معاً أن يشكو المعتدى من الضحية، ويصرخ عندما تحاول الضحية المقاومة المشروعة دفاعاً عن النفس .

يخطر بالبال هذا الخاطر عندما تروِّج بعض الدوائر الغربية لإشاعة فكرة خطر الإسلام ووصم المسلمين بالإرهاب، وكأنما رمتنا بدائها وانسلت ! وهى من الحيل القديمة للاستعمار منذ وطأت أقدامه ديارنا والحق أن الشرق (لا يفكر فى الهجوم أو السيطرة على أحد كائنا من كان، وكل ماينشده إنما هو استقلاله وسكينته، وذلك مطلب مشروع) [١]

ولا زال هذا موقفه أمام الغزو الذى أخذ ينتقل من مرحلة إلى أخرى[٢]، إلى أن ينتهى بما يسمى (بالعولمة)، وهى الصيغة الأخيرة للسيطرة والابتلاع لكل ما هو أمامها، ولا عجب فانها امتداد لحضارة العصر (هذه الحضارة الغازية الغالبة المتسلطة)[٣]

---

(١) ص ٧٨ من كتاب (أزمة العالم المعاصر)، رينيه چينو (الشيخ عبد الواحد يحيى) ترجمته سامى محمد عبد الحميد ط النهار سنه ١٩٩٦ م. و يقول فى ص ٣٦ (أن امامهم ـ أى أهل الشرق ـ عملاً شاقاً للدفاع عن أنفسهم ضد القهر الأوروبى الذى قد ينفذ بآثاره إلى روحهم وفكرهم، وأن من أعجب الأعاجيب أن ترى المعتدين يصورون انفسهم وكأنهم الضحايا) !

(٢) يقول هنتجتون (مر الغرب بمرحلة أولى، أوروبية، من التطور والتوسع استمرت عدة قرون، ثم بمرحلة ثانية، أمريكية فى القرن العشرين) ص ٤٩٨ . من كتاب (صدام الحضارت : إعادة صنع النظام العالمى) ترجمة طلعت الشايب تقديم د. صلاح قنصوة . طـ النهار سنة١٩٩٦م .

(٣) ص ٣٠ من كتاب (ثقافتنا فى مواجهة العصر) د / زكى نجيب محمود ط دار الشروق ـ يناير سنه ١٩٧٦ م .

أما عن مـزاياها فلا يمارى فيـها أحد، فقـد تميزت وتفوقت بالتـقدم العلمى والتكنولوچى والتـنظيم الادارى والنظام السـياسى والوفـرة فى الانتـاج الصناعى والزراعى، مع الجـدية فى العمل والمثـابرة والحرص على جـعل اليوم أفـضل من الأمس .. ألخ .. ولكن تدفعـها الأنانية للاستـئثار فتلقى بالفـائض من الإنتاج الزراعى بالبحـار والمحيطات للحفـاظ على سعره، وتضـنّ علينا بما يفيدنا علمـياً وتكنولوچيـاً لنظلّ تابعـين لهـا، وتحرص على إغـراقنا برذائلهـا من آداب وفنون الجنس، ومذاهب العبث واللامعقـول، وأفلام العنف والعرى، ثم أخذت تتدخل أخيراً فى أخص شئوننا تحت لافتة الدفاع عن المرأة والأسرة والحريّات .

ونرى أن أول خطوات المقاومـة، هى فتح الأعـين على الوجه الآخر لحـضارة العصر لأنها حريصة على الظهور بوجـهها المتجملّ بأدوات التكنولوچيا، وتزييف الحقائق بأجـهزة الإعلام التى برعت فى الانحياز والخـداع، والكيل بمكيالين عند نقل الأخبار، وعرض الآراء بانحياز متعـمد، مع إخفاء الوجه الآخر الذى يفصلّ ملامحها الحقيقية .

وبهذا الوعى نسـتطيع التخلص من آثار الهزيمة النفـسية أمام حـضارة الغرب بمعرفة خـلفياتها وروحـها، وفى المقابل وجب علينا السعى لمعـرفة القيم الرفـيعة لحضارة الإسلام التى تركها المسلمون وراء ظهورهم، إما جهلاً أو إهمالاً وتكاسلاً أو بسبب الضـوء الباهر لحضارة العصـر، الذى ربما يزيغ البصر مـؤقتاً، ولكن لا يدفع للانقياد والسلبية .

يقول د / مراد هوفمان [(١)] :

(تتحـدث وسائل الإعـلام، من وقت إلى آخر بشكل لائق وفى احـترام بالغ عن طقوس اليهودية المتشددة، خصوصاً طائفة Lubevitscher، ويتابعون بحرص طقوس الفصل بين الجنسـين، تدابير الزيجات، تصفيفـات شعرهم ذات المغزى، ملابســهم، غطاء الرأس، آداب الطعام، النحـر ورفض تناول لحم الخنزير. ولكن

(١) ص ١٥٠ من كتاب (الطريق إلى مكة)، مراد هوفمان دار الشروق بمصر ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

لا يتهمـهم أحد بانتهاك حـقوق المرأة، أو أن هذه الطقوس رجعـية أو متعـصبة. ولكن هذه هى الصفات التى تلصق بالمسلمين، إذا ما سلكوا نفس هذا المسلك) .

ويمضى مبيناً انحياز وسائل الإعلام فـى التقارير الإخبارية اذ لم يتحدث أحد ابداً عن هتلر الكاثولـيكى أو ستـالين المسيـحى الأرثوذكـسى، أو زعيم الصـرب كاردتش المسيحى، ويوصف العربى فقط بالإرهابى إذا أمسك السلاح بيده، حتى إذا كان مسيحياً فلسطينياً أو بعثياً لا يؤمن بالله.

كذلك لم توصف الأسلحة التى أسقطت على نجازاكى وهيروشيما بـ (القنبلة المسيـحية)، ولكن إذا حامت شكوك حـول قيام دولة إسلامـية بصنعها سـميت بـ(القنبلة الإسلامية) فوراً .

وحدث ولاحرج عن صفـة (متعصب) لكل زعيم مسلم (أما مـيلو شفيتش فلا . الهجمات المسلحة فى كتالونيا وإقيلم الباسك وأيرلندا الشمالية، لا يقوم بها « باسكيون متـعصبون » أو « كاثوليك متـعصبون »، بل أعضاء جـماعة ETA وجماعة .. RAI) (أ.هـ)

وقد أصاب د / جلال أمين عندما شخّص العلاقة بيننا وبين الغرب بأننا وقعنا فى فخ مـا سـمى (بأطروحـة صـراع الحضـارات)، لأن الذى بينـنا وبينه ليس صراعاً بل اعتداء، وكان معترضاً على فرض الغرب علينا قضايا (الحوار) ليدفعنا إلى الانسـياق وراءه، ورأى أن المأمن من الوقـوع فى هذا الفخ (اخـتيـارنا نحن إجابتنا بأنفسنا، وألا ننساق وراء ما يحددونه من صيغ) [١]

أهداف الكتاب :

أولاً : فهم روح الحـضارة المعاصـرة وجوهرها بمنهج نقـدى يستطلع دوافعـها وأهدافها وموقفها منا، إذ من الخطأ اختزال هـذه الحضارة وحصرها فيما يظهر لنا من أمارات التـقدم التكنولوچى والنظام الديمـقراطى والوفـرة الاقتصـادية، وكان

---

(١) من مداخلات المؤتمر الدولى حول صراع الحضـارات أم حوار الثقافات) القاهرة ١٠ ـ ١٢ مارس. ١٩٩٧ م نشرت بكتاب بنفس العنوان ص ٥٩٣ .

مطبوعات تضامن الشعوب الأفريقية الأسيوية بالقاهرة تحرير د / فخرى لبيب

ألبرت شيفتر من المحذرين لتغليب الانجازات المادية على العنصر الروحى وقال :

(ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلى التفكير. إنها تقول بلسان جاد، إن الحضارة التى لا تنمو فيها إلا النواحى المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافىء فى ميدان الروح هى أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التى ستقضى عليها [1]، وسيتضح لنا ذلك جيداً بعد نزع وجهها الدبلوماسى المغلف بالمصلحة .

ثانياً : الايدفعنا الإنبهار إلى الذوبان فيها على حساب تراثنا الروحى والفكرى، وهو الأساس الجدير وحده بنهضتنا بعد تهافت الأيدولوچيات .

ثالثاً : كيف نحافظ على هويتنا ؟

والإجابة فى مقال مستقل

ويحتوى الكتاب على مقدمة ومدخل للدراسة، ثم عرض لبعض قسمات الوجه الآخر لحضارة العصر.

وأسأل الله عز وجل أن يحقق هذا الكتاب أهدافه، وأن يلهمنا التسديد والتوفيق،

وما توفيقى إلاّ بالله، عليه توكلت وإليه أنيب،

مصطفى بن محمد حلمى

الأسكندرية فى: أول رجب ١٤٢١ هـ
٢٨ سبتمبر سنة ٢٠٠٠ م

---

(١) فلسفة الحضارة، البرت شيفتر ص ٣٦، ترجمة د / عبد الرحمن بدوى المؤسسة المصرية العامة سنة ١٩٦٣ م .

مدخل الدراسة

- تفسير هجمات الغرب الأخيرة فى العصر الحديث .
- الدور الأخير لتطور الحضارة المعاصرة .
- تعليل الفزع من الإسلام .
- انتعاش الصحوة الدينية فى الغرب .

* * *

تفسير هجمات الغرب الأخيرة فى العصر الحديث :

لاقى المسلمون الأمرّين من أهل الحضارة الغربية وتعرضوا للغزوات العسكرية المتواصلة منذ نحو قرنين، وبعد انسحاب الجيوش من أرض المسلمين حل الغزو الثقافى بأدواته المسمومة محل الاحتلال العسكرى ولا يزال مستمراً فى تخريب نسيج الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، مما ينذر بالخطر على كياننا، كأمة، وزاد الطين بلة إزاحة شريعة الإسلام من مكانتها الحاكمة والضابطة لحياة الإنسان فى المجتمعات الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية محلها، وسارت بجوارها عملية فرض الفلسفة والثقافة ونظرتهم للحياة والقيم فى الأدب والفن وطرق المعيشة والسلوك فى المأكل والملبس والمشرب وهاهو المؤرخ الانجليزى. توينبى لم يخف حقيقة الصراع بين الغرب والعالم الإسلامى الذى لم ينقطع، مع تغيير الأسلوب، إذ بعد دروس الحروب الصليبية التى تعلمها الغرب، عاد للهجوم بأسلوب آخر، أى أسلوب التطويق من المحيطات، بدلاً من النفاذ إلى القلب لأنه لقى مقاومة بشجاعة، قال توينبى :

(والواقع هو أن الهجوم الغربى المضاد على العالم الإسلامى - وهو الهجوم الذى كان مقدراً له أن يقع إن آجلاً أو عاجلاً بعد فشل الأتراك فى فيينا عام ١٦٨٣ م هذا الهجوم قد تأخر بسبب ما يحفظه الغرب من ذكريات بعيدة الزمن عن الشجاعة العسكرية التاريخية التى كان عليها الأتراك والشعوب الإسلامية الأخرى وكان رد العالم الغربى على غزو الأتراك للبلاد المسيحية الأرثوذكسية الشرقية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر هو ألا يقوم بهجوم أمامى جديد على العالم الإسلامى على نمط الحرب الصليبية التى منيت بهزيمة ساحقة بل بتطويق المسلمين عن طريق السيطرة على المحيط)[1] ونفهم من النص كيف حاول. توينبى التخفيف من حدة العداء مُعَبِّراً عنه بالذكريات، ولكنه لم يُخف اسم الأتراك بخاصة ووصفهم بالشجاعة ولم يسترح الغرب إلا بعد تحطيم الخلافة

(١) ص ١١٠ من كتاب (أرنولد توينبى)، لمعى المطيعى دار الكتاب العربى بالقاهرة ٢٢ / ٢ / ١٩٦٧ م

العثمانية، والحق أن القليل منا من يعرف أبعاد الكارثة التى كانت حين وقوعها بمثابة زلزال مدمر للأمة عرف علماؤها وعامتها بفطرتهم الإيمانية أنها بداية انحسار الإسلام بعد أن تمكن الغرب من تحطيم حصن الإسلام من داخله على يد أتاتورك اليهودى الدونمى، والدونمة فرقة من فرق اليهود تتخذ الإسلام واجهة تخفى وراءها يهوديتها .

ويصوِّر لنا الشيخ الندوى بأسلوبه البليغ هذا الحدث فيقول (وبذلك انهدم ليس سور الأماكن المقدسة فحسب، بل سور عرض المسلمين وعزهم وكرامتهم الذى بناه الأتراك العثمانيون بتضحياتهم الجسيمة وقوتهم العسكرية، وبمكانة الخلافة المقدسة) .

ومن تعليقات العلامة شبلى النعمانى فى قصيدته وعنوانها (كارثة البلقان) : أن زوال الدولة العثمانية فى الواقع زوال ملك المسلمين وملتهم . .) وقال الدكتور محمد إقبال فى أحد أبياته (لقد خرق الجاهل السفيه قباء الخلافة، فانظر سذاجة المسلم وشطارة الأجانب) [١]

يؤيد ذلك اعتراف كرزون الوزير البريطانى الصريح باعلانه فى مجلس العموم أن تركيا قضى عليها ولن تقوم لها قائمة لأن حكومته ـ وكان هذا بإيعاز من القوى الغربية وباصرار منها ـ قد قضت على القوة المعنوية فيها وهى الخلافة الإسلامية [٢]

وكانت الضربة قاصمة لم تر الأمة مثلها فى تاريخها كله، فعندما أسقط التتار الخلافة ببغداد عام ٦٥٦ هـ أعيدت بعدها سنه ٦٥٨ هـ بالقاهرة، وعلى أثر

---

(١) ص ٦٦ / ٦٧ من كتاب فى سيرة الحياة للأمام الندوى ط دار القلم / دمشق ـ بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م وأجمعت المصادر أن أتاتورك لم يكن مسلماً، ولكن كان يهودياً من طائفة الدونمة المستترة بالإسلام يُنظر كتاب (يهود الدونمة) ترجمة كمال خوجه ـ ط دار السلام بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧ م وكتاب (الفكر الدينى اليهودى ـ أطواره ومذاهبه) للدكتور حسن ظاظا من ص ١٢٠ ومن ص ٢٦١ إلى ص ٢٦٣ ط دار القلم / دمشق ودار العلوم / بيروت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م

(٢) تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ص ٢٧٣، على حسون ط المكتب الإسلامى، دمشق، بيروت نقلاً عن الندوى ص ٦٧ المصدر السابق .

تحطيمها جرأ أتـاتورك ومن حذا حذوه على إقصاء الشريعة بعد مـا كانت الحاكمة طوال القرون، وإحـلال القوانين الوضعـية، وبعدما نـشأت الأمة الإسلامـية منذ عصر النبى ﷺ، وهى تحـتضن مفهوم الارتباط المتـين بين أمور الدين والدنيا التى تنظمها الشريعة ويـقوم على تنفيذها الخليفة حيث يتفق الفقـهاء على صياغة هذا المفهوم فى تعريفهم للخلافة بأنهـا (رئاسة عامة فى أمر الدين والدنيا خلافة عن النبى ﷺ)[1]

يتضح اذن الصـورة الخلفية للحـضارة المعاصـرة بدوافع هجماتهـا على العالم الإسلامى فى العصر الحديث، وقد أجملها الأستاذ العقاد فى ثلاثة هى :

١ ـ الصهيونية العالمية :

وتلك أشرنا إلى أنها صـهرت المذهب البروتستنتى، وضـمت إليها الملايين من النصارى المؤمنين بأهدافـها غير المشـروعة فى اغتصـاب أرض فلسطين من أهلها بزعم تنبؤات توراتية !)[2]

ولله درّ العقاد الذى تنبه منذ وقت مـبكر إلى السر الدفين بين النحلتين، وهو ما لم يظهر على السطح إلاّ أخيراً، فأصـبح من السهل تفسير المؤازرة الكاملة من الانجليز لليهود (وعد بلفور وتمكينهم من الإستيلاء على بعض الأراضى بفلسطين قبل الجـلاء عنها عقب إنتهـاء الانتداب سنه ١٩٤٨م ـ ثم جاء بعـدهم الأمريكان لتكملة المسيرة، وكلاهما يدينان بالمذهب البروتستانتى !)

٢ ـ الإستعمار وقصته البشعة معروفة ومسجلة، ولكن قلّ من يقرأ، أو إذا قرأ فإنه يخفى السجل المتخم بالجرائم .

---

(١) للاستزادة، يُنظـر الدراسة حول كتاب (النكيـر على منكرى النعمة من الدين والخـلافة والأمة) لشيخ الإسلام مـصطفى صبرى، وقد صدرت مع الكتـاب بعنوان (الأسرار الخفية وراء إلغـاء الخلافة العثمانية) ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

(٢) ص ١٠٨ من كتاب (الإسلام فى مواجهة الغرب) للأمريكية المهتدية مريم جميلة ترجمة طارق السيد خاطر ـ ط المختار الإسلامى بمصر سنه ١٩٩٢ م .

٣ ـ التعـصب على الإسلام، وهذا هو الداهية الكبـرى والقاصمة التى مـا بعدها قاصمة] [١]

الدور الأخير لتطور الحضارة المعاصرة :

بعد فشل الماركسية كفلسفة ونظام سياسى واقتصادى جاءت (العولمة) أو (الأمركة) لتفرض نفسها بهالة ضخمـة من الدعاية بحملات إعلامية ضخمة ومنظمة يقودها دعاة مصنوعون بأيدى الأجهزة الحاكمـة والمخابرات أمثال هنتجتون وفريدمان وفوكوياما لاقتلاعنا من هويتنا والإلقـاء بنا فى أتون النظام العالمى الجديد، متجاهلين التاريـخ الصحيح للـحضارات التى ربما تـتلاقى، أو تصطدم بسـبب تنوع الثقـافات والأعـراق والأجناس، ولم يحـدث فى تاريخ العـالم انفراد إحـدى الدول بحكمـه والسـيطرة المنفـردة عليـه لأنه من سنن الله الكونيـة تدافع الأمم، كمـا يتـدافع الحق والباطل .

وأقرب مثـال لذلك أن إنتقال علوم المسلمين إلى أوروبا فى الـعصور الوسطى لم يجعل شعوبهـا جزءاً من الحضارة الإسلامية، فلم تـفكر شعوب أوروبا حين ذاك فى الأخذ باسلوب الحياة العربـية والتخلى عن أسلوبهم، بالرغم من أن أوروبا (رحبت بفهم وتلقى إنجازات وأعـمال المسلمين فى العلوم والفلسفـة . . ولكنها مع ذلك لم تكن أبداً راغبة فى هجر هويتها الحضارية كما تفعل البلاد الإسلامية الآن) [٢]

ويعتبر جـارودى عام ١٩٩٢ بداية العهد الإستعمـارى فى التاريخ الحديث بسبب إنهيار إشـتراكية الدول فى الشرق، وما سـجلته فيه حرب الخليج، إذا كـشف تدمير العراق عن حرب من نوع جديد، لأنها ليست بين دول إستعمارية متنافسة كانجلترا أو فرنسـا (لكن إستعـمار جمـاعى متعـدد الجنسيات تحت سـيطرة الأقوى : الولايات المتحدة، إنها أول حرب إسـتعمارية عالمية . حرب تحالف كل المسـتعمرين القدامى،

---

(١) الصهيونية العالمية، عباس العقاد ص ٣٧ ط مكتبة غريب بمصر سنه ١٩٦٨م

ينظر كتاب (المسيـح اليهودى ونهاية العالم ـ المسيحـية السياسية و الأصـولية فى أمر يكا)، رضا هلال مكتبة الشروق ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م

(٢) ص ١٠٨ من كتاب (الإسلام فى مواجهة الغرب) للأمريكيـة المهتدية مريم جميلة ترجمة طارق السيد خاطر ـ ط المختار الإسلامى بمصر سنه ١٩٩٢ م .

دون إستثناء، ومعهم « عملائهم » التقليديون المشترون والمجندون فى المواقع) [1]

وكشف عام ١٩٩٢ عن الفشل المزدوج للحضارة الغربية فى نموذجها السوفيتى الذى قاد إلى نظام تعسفى وفى نموذجها الأمريكى الذى أعادنا إلى الغابة .

ولم ينجح كلاهما فى الإجابة عن الأسئلة الخاصة بالأهداف النهائية .

وفشل العلم التجريبى والتكنولوچيا فى قيادة الإنسانية بنجاح، كما فشل علم الاجتماع فى أن يحل محل الأخلاق .

وولد نوع جديد من البشر : الإنسان المبرمج وأصبحت العقول البشرية تشبة الكومبيوتر .

ولكن مع قدرة الكمبيوتر التى ليس لها حدود فى تقديم الحلول بدل العقل البشرى، فإنه يبقى كنوع من التطوير لوسائلنا وجعلها أكثر فاعلية، ولم يقدم الحل المتمثل فى التساؤل حول الأهداف النهائية منذ بداية الإنسانية، وهذا من عمل الأديان [2]

ويصح الاستنتاج إذن، من عجز حضارة العصر عن تحقيق الحياة الطيبة، أن إنقاذها (لن يتم إلا من خلال العودة إلى حضارة أخرى - أو على الأقل - إلى نظام آخر للقيم أكثر تماسكاً وأكثر منطقية) [3]

وربما كان ذلك سبب إقبال بعض الشباب الأوروبى على الإسلام بدافع البحث عن الفضائل التى إفتقدها فى مجتمعاته، وهذا ما يراه الدكتور هوفمان، فيذكر أن بعض الشباب المعترض على إنحرافات المجتمع الصناعى وجد فى الإسلام ضالته المنشودة، والحياه فى (مجتمع عالمى أكثر عدلاً، تسوده أخلاقيات رفيعة، مجتمع يخلو من تقسيمات وتدرجات هرمية معقدة، مجتمع يبعث وينشر الدفء الإنسانى،

---

(١) حفار القبور، الحضارة التى تحفر للإنسانية قبرها، روچيه جارودى ط دار الشروق سنه ١٤١٩ هـ سنه ١٩٩٩ م ص ٧١٦ .

(٢) باختصار من ص ٨ إلى ص٩٠ من كتاب (حفار القبور)، چارودى

(٣) ص ٢٦ من كتاب (الإسلام والقوى الدولية) د / حامد ربيع ط دار الموقف العربى - القاهرة سنه ١٩٨١ م

مجتمع يوفر للإنسان السند، ويمنح الحياة معنى عميقاً)[1] .

ولو شئنا التوسع، لعرضنا للنسق العام للثقافة الإسلامية الذى يتضمن تفسيرات للحياة والكون بأدلة عقلية وفق أنساق متكاملة تصل بين حقيقة خلق الإنسان والحياة الدنيا والمصير . وصلة الإنسان بالعالم ودوره كخليفة لله عزوجل فى الأرض، لتحقيق العدل وتعمير الأرض كل ذلك فى اتّساق مبهر، تتضاءل أمامه فلسفات الفلاسفه وقوانين المشرّعين الوضعيين[2] .

تعليل الفزع من الإسلام :

أصابت صحوة الإسلام الفزع فى الغرب لأنها أتت معارضة لتكهنات المتخصصين فى دراسة الشرق إذ ساد الاعتقاد منذ بداية القرن العشرين أن الإسلام استنفد دوره السياسى نظراً لوقوع العالم الإسلامى بالكامل (تحت وطأة الاستعمار الأوروبى)[3]

يقول مراد هوفمان (كان دارسو الإسلام، إبّان فترة الاستعمار وحتى خمسينيات هذا القرن، على يقين تام من موت وفناء موضوع بحثهم، حتى إنهم انطلقوا يبحثون عن الإسلام قبل زواله وأفول نجمه . . . فلقد كان واضحاً بما لا يدع مجالاً للشك، أن ديانة السكان الأصليين البدائية ستذوب أمام شمس الحداثه الغربية)[4] .

ويعلل هوفمان الصدمة بسبب نجاح الثورة الإيرانية وما ألحقته بالولايات المتحدة من إهانات بالغة، كذلك بسبب إجبار المجاهدين الأفغان الجيش الروسى على الانسحاب من أراضيهم .

وربما يرجع السبب أيضاً إلى تحول الداخلين فى الإسلام إلى أعداد غفيرة بعد إن كانت حالات فردية . يقول هوفمان :

---

(١) الطريق إلى مكه، مراد هوفمان ص ١٢٤ دار الشروق ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م

(٢) ينظر كتابنا (إسلام جارودى بين الحقيقة والافتراء) ص

(٣-٤) الطريق إلى مكه، مراد هوفمان دار الشروق ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م ص ١٤٧ / ١٤٨ وجاء كتابه «الإسلام كبديل» رداً غير مباشر على كتاب فوكوياما (نهاية التاريخ والرجل الأخير) ص ١٧٢ .

(تعتنق الإسلام اليوم أعداد متزايدة من الأوروبين فى جميع بلدان أوروبا، وأصبح اعتناق الإسلام يمثل فى الآونة الأخيرة ظاهرة، بعد أن كان من قبل حالات فردية) .

وتعلل الدكتورة /زيجفرد هونكة عداء الغرب للمسلمين منذ الحروب الصليبية، وتخص بالذكر البابا الذى وجه نداءه للفرسان، بألا يكفوا عن حرب العالم الإسلامى أبداً بقوله: (ولست أنا الذى ينذركم وإنما الرب نفسه يطلب إليكم ويحذركم، بصفتكم حملة لواء المسيح «عليه السلام» والمبشرين الداعين إليه، أن تطهروا الأرض المقدسة التى يعيش فيها إخوانكم المسيحيون، من أولئك الرعاع) [١] .

بالإضافة إلى الأحكام المسبقة الظالمة التى شوهت وجه الإسلام، كوصفه بالجبرية، وانتشاره بحد السيف واضطهاد المرأة، وتنطلق أبواق الدعاية لتكيل المدح للنصارى بصفتهم نبلاء عظماء، وتنال بظلم بيّن من المسلمين، (الذين لا يستحقون سوى القتل وأن يخروا غارقين فى دمائهم تطأ أشلاءهم الأقدام وطئاً)[٢]

وقد فنّدت الدكتورة هونكة - مشكورة - كل الاتهامات الموجهة للإسلام والمسلمين وناقشتها بمنهج علمى رصين، ودفعها ذلك إلى إظهار فضل حضارة الإسلام على أوروبا ووصفتها بأنها (الحضارة الزاهرة التى غمرت بأشعتها أوروبا عدة قرون)[٣] .

وأزعجها من بنى وطنها فى ألمانيا خاصة موجات العداء المغرضة التى تستهدف الإسلام[٤] .

وفى موضع آخر من كتابها (الله ليس كذلك) تفسر العداء المعاصر[٥] بقولها (إن الصدمة النفسية العربية المتغلغلة فى كيان الغرب، والتى لم يشف منها فى مجموعها بوجه عام، على امتداد ألف عام، فيما عدا استثناءات بهيجة، صارت

---

(١) ص١٧ من كتاب [الله ليس كذلك] زيجفرد هونكة ترجمة د/ غريب محمد غريب دار الشروق مؤسسة بافاريا - مجلة النور الكويتية ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م .

(٢) نفسه ص٤٤ .　　(٣) نفسه ص٩ .　　(٤) نفسه ص٩٩ .

(٥) ولفظ العداء الوارد بالنص أقل وطأة من (الاحتقار) الذى يستخدم أحياناً لتصوير نظرة الغرب للشرق يقول شيئون (ذلك الاحتقار الذى يكنه كثير من الغربيين لدى احتكاكهم بالشرقيين - وهو احتقار - وياللأسف، غيرنا شيء دائماً عن مجرد التحامل مثلما هى عليه الحال فى كره الشرق التقليدى . . .) ص٨ من كتاب (الإيمان والإسلام والإحسان فى مقارنة الأديان) تأليف فرتجوف شيئون وترجمة نهاد خياطة - ط المؤسسة الجامعية / بيروت ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

اليوم تنصب على الاتراك، ظلماً وإجحافاً ثائراً أرعن) [1] .

هذا، وقد تضافر العداء للاسلام مع نقيصة التميز العنصرى ليصبحا دستوراً يتبعه الغرب الآن مع الملونين، ومنهم المسلمين، فما زالت هناك نزعة خفية - كما يسميها جيهينو - لدى الكل فى أوربا ضرورة تحجيم هجرة الجنوب، بل وقفها إن أمكن، ولكن الأغلبية لا تجرؤ على التصريح علناً بذلك، ولكنه يكتب بصراحة (علينا أن نحمى أنفسنا من تلك المجتمعات المحيطة بنا، وأن نقيم الحواجز ونتعزل حتى نتحاشى أن يعكر البرابرة الذين يطوقوننا، صفو التعقيد المريح للعصر الإمبراطورى، ويجب أن يكون اندماج عالمنا بشكل متزايد، عالم الأغنياء، مصحوبا بتباعد أعمق فأعمق عن عالم الفقراء الذى يحسن بنا أن نسميه بالأحرى « العالم الآخر » لا العالم الثالث) [2].

ثم يقر أيضا داخل دائرة العنصرية بين فئتى الأوربيين المسيحيين، والأفارقة المسلمين، فيقول (إلا أننا أقل انغلاقا إزاء هجرة جيراننا الوافدين من شرق أوربا الأوربيين والمسيحيين، بالمقارنة مع جيران « الجنوب » من عرب وأتراك وأفارقة، وأغلبهم من المسلمين)[3].

كذلك تهمة الارهاب كسلوك عنيف ودموى، مصدره هناك كما سنرى فى مضمون الكتاب ولكن استطاع الغرب الماكر تزييف صورته وكأنه الحمل الوديع، بينما هو فى الحقيقة يخلط بين الإسلام والارهاب بسبب تحيزه المسبق (حتى وصل الأمر إلى إطلاق إسلاموفوبيا على هذه الظاهرة . إن الغرب يسعى إلى فبركة عدوّ جديد هو الاسلام هذه المرة) [4] .

ويبالغ هنتجتون فيما يتصوره من خطر الإسلام على الثقافة الغربية ويرى أنها

---

(١) نفسه ص٩٩ .

(٢) نهاية الديموقراطية، جان مارى جيهينو ص٤٣ ترجمة حليم طوسون مكتبة الشروق يوليو ١٩٩٥م

(٣) نفسه ص ٤٣ .

(٤) ص٧٤٨ من مداخلات المؤتمر الدولى حول صراع الحضارات أم حوارات الثقافات، مصدر سابق ويفسر ذلك د/ وجيه كوثرانى بأن الرأى العام الغربى عموماً لابد له من أسطورة خطر تتهدده من الخارج كى يتماسك (١٩٢ من مقالة بعنوان : أزمة نظام عالمى أم صدام حضارات) .

تواجه تحديات من جماعات داخل المجتمعات الغربية، ويخص المهاجرين الرافضين الاندماج ويواصلون الالتزام بقيم وثقافات مجتمعاتهم الأصلية.

ويقول (هذه الظاهرة أكثر ما نلاحظها بين المسلمين في أوروبا، وهو أقلية صغيرة على أية حال)(1)

انتعاش الصحوة الدينية في الغرب :

ظهرت في السنوات الأخيرة بحوث ودراسات لرصد التحولات العميقة في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسة في الغرب ولها مغزاها في خط سير حضارته، حيث فصل الدين عن الدولة في باكورة عصر نهضته، ثم دار الزمن دورته، وعاد يلتمس في الدين : إما علاجاً لأدوائه وضماناً لاستمرار حضارته وحفظاً لها من الانحدار في غرب أوروبا، أو رباطاً جامعاً كبديل للماركسية المنهارة في شرق أوروبا. (2)

ويبدو أن التيار الغالب الآن هو تيار اليمين المسيحي، يقول الدكتور حازم الببلاوي: (فحتى وقت غير بعيد كان المفكرون الغربيون يصفون أصول ثقافتهم بأنها إغريقية - رومانية - مسيحية، و إذا بنا نجد فى السنوات الأخيرة سيلاً من الكتابات يشير الى جذور اليهودية - المسيحية لهذه الحضارة) (3)

ومنذ سقوط الاتحاد السوفيتى، تمخضت الأحداث عن إحياء دينى فى روسيا والدول التابعة لها، وقد سجل هنتجتون هذا التحول المثير بقوله : (الحروب

---

(1) ص ٤٩٢ صدام الحضارات .

(2) ص ١٥٧ من كتاب (المسيحي اليهودي ونهاية العالم - المسيحية السياسية والأصولية في أمريكا)، رضا هلال مكتبة الشروق بالقاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

(3) نحن والغرب - عصر المواجهة أم التلاقي ؟ د. حازم الببلاوي ص٣٠ ط دار الشروق ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

اليوغوسلافية أفرزت أيضا تجمعاً كبيرا للعالم الأرثوذكسي وراء صربيا . القوميون الروس، ضباط القوات المسلحة، رجال البرلمان، رؤساء الكنيسة الأرثوذكسية، كل أولئك كانوا واضحين فى دعمهم («صربيا» و الحط من شان (الأتراك) البوسنيين ، وانتقادهم للاستعمار الغربى وللـ« ناتو ») [1] .

أما فى أمريكا، فان اليقظة الدينية هناك تسعى إلى انتشال المجتمع من الانحدار، إذ نجح اليمين المسيحى فى اعادة قيم العائلة و المطالبة بالصلاة فى المدارس و المطالبة بإلغاء قانون إباحة الإجهاض وحقوق الشواذ جنسياً .

واستطاعت الحركة جذب الأغلبية فى مجلس الكونجرس، بحيث لم تفلح معارضة الحزب الديمقراطى فى كسر شوكتهم . وربما لم يحسم الصراع بعد، ولكن الكفة الراجحة طوال السنوات العشرين لصالح اليمين المسيحى[2] .

وقد عقد هنتجتون مقارنة بين المسيحية فى الغرب وبين امريكا، ورأى أن ضعف المسيحية - التى هى المكون الرئيسى للحضارة الغربية - قد يقلل من شان تلك الحضارة، و فى المقابل يصف الأمريكيين بأنهم يترددون على الكنائس بأعداد كبيرة، (وبينما لا يوجد دليل على يقظة دينية فى امريكا منذ منتصف الثمانينيات، إلا أن العقد التالى بدا و كأنه يشهد نشاطاً دينياً واسعاً)[3] .

كذلك زحفت الصحوة الدينية على بعض الأعمال المسرحية التى لقيت إعجاباً شديداً من الجماهير وكأنها عثرت على ضالتها بعد سقوط الأيدولوجيات، منها مسرحية للكاتب البولندى كانتور، التى تصاحب أحداثها التراتيل الدينية، وتتضمن مشاهدها (مشهد حمل الصليب، ومشهداً واقعيا للصلب، وبعد أن نعايش آلام الصلب و مهانته، نصل فى النهاية الى العشاء الأخير، الذى تعود

---

(١) ص ٤٥٩ من كتاب (صدام الحضارات) .

(٢) المسيحي اليهودي ونهاية العالم مرجع سابق .

(٣) ص٤٩٣ صدام الحضارات .

الشخصيات بعده إلى عالم الموتى، بينما نظل نحن المتفرجين فى حالة من الصدمة و الذهول فترة، قبل أن نتمالك أنفسنا لنحيّي الممثلين على جهدهم، ولنشكرهم لأنهم قدموا لنا صورة لماضينا وحياتنا، و أيضا موتنا)[1] .

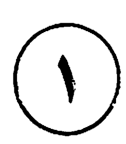
تُرى، لو عرضُت عندنا مسرحية تعالج قضية دينية، فما هى التعليقات المنتظرة للنقّاد؟

* * *

وحان الآن الانتقال لصلب الكتاب الذي يتضمّن عرضاً موجزاً للنكبات التي سببتها لنا حضارة العصر، ويزيح الستار عن ملامح وجهها الدميم :

---

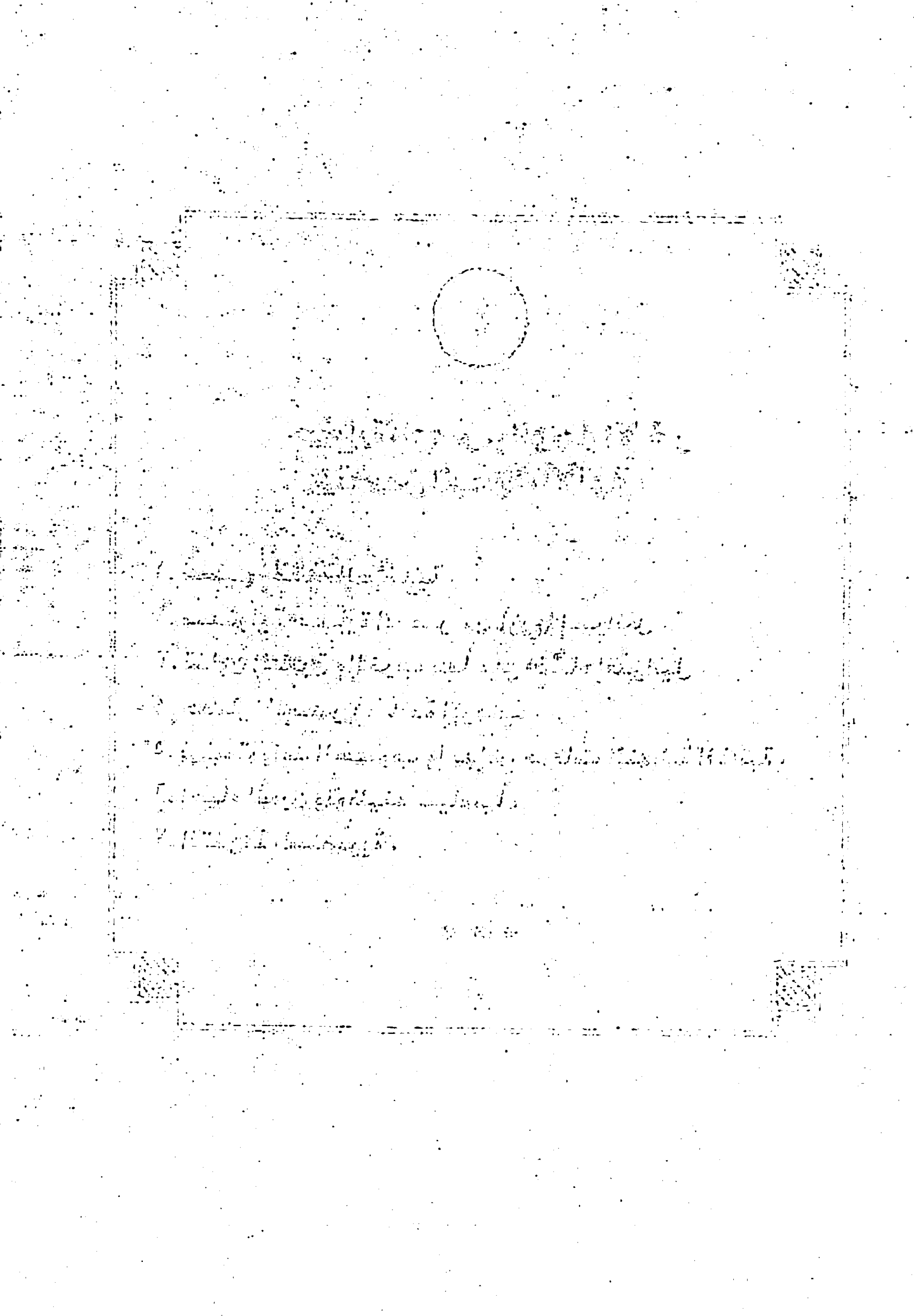
(١) ص٣٠٢ من كتاب (التفسير والتفكيك والأيديولوجية ودراسات أخرى) اختيار وتقديم د. نهاد صليحه ط :الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م .



حضارة العصر.. الوجه الآخر
ويتضمن البحوث الآتية :

١. تحطيم الخلافة العثمانية .
٢. مسئولية حضارة العصر عن (زرع) إسرائيل .
٣. تعاون الشرق والغرب معاً على إنشاء إسرائيل .
٤. حضارة العصر : صانعة الإرهاب .
٥. نهب ثروات الشعوب وإجهاض حركات النهضة الذاتية .
٦. إحياء الدين وتوظيفه سياسياً .
٧. التفرقة العنصرية .





١. تحطيم الخلافة العثمانية

تكالبت دول الغرب مجتمعة علي الخلافة العثمانية ليسهل اقتسام بلاد المسلمين ورفع رايات العصبيات من قومية ووطنية، وغرس مذاهب فلسفية وسياسية، فتوزعت الأمة الإسلامية إلى دول ودويلات وإمارات والتهمها الاستعمار ووضع ركيزته (إسرائيل) في موضع القلب بفلسطين بينما كانت منطقة الشرق الأوسط مستعصية على الاستعمار (لأنها كانت جزءاً من الخلافة الإسلامية التركية التي أقامها العثمانيون في القسطنطينية منذ أواسط القرن الخامس عشر)[١] .

ونعطي للقارئ في عجالة فكرة عامة تتناول التعريف بنظام الخلافة، لأننا معشر الجيل المعاصر قد أنسينا عن عمد تاريخها، وأخفِيَ عنا مآثرها وفضائلها ومجالي عظمتها، وشوهت مناهج التعليم صورة الخلافة، ووصفتها - وياللعار - بأنها استعمار يقف في مصاف دول الاستعمار الغربية على خط واحد !

وما أبعد هذا الزيف عن الحق والواقع ! إن الخلافة في حقيقتها هي النظام السياسي المتصل منذ وفاة النبي ﷺ ، أصابه الوهن في أطواره التاريخية، ولم يستمر على (مثاليته) أيام الخلافة الراشدة، ولكن بقي محافظاً على (وحدة) الأمة الإسلامية، تلجأ إليه في حالة المصائب والكوارث فينقذها، وتحقق ذلك بالفعل أثناء الغزو التتاري والحروب الصليبية. وقد وعى الغرب ذلك جيداً فوضع نصب عينيه هدم الخلافة ليسهل عليه التهام الأمة .

ونكتفي باجتزاء تعريف ابن خلدون للخلافة المستند إلى التصور الصحيح لها ليعرف المسلمون قدرها، قال (**الخلافة حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا**)[٢]

فلا عجب - كما يقول الإمام رشيد رضا - أن يستمسك أكثر مسلمى الأرض

---

(١) د/ حسن ظاظا (إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين) ص٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٥٧٨ . تحقيق د/ عبد الواحد وافى دار نهضة مصر بالفجالة .

بالدولة العثمانية وخليفتها لأنها أقوى الحكومات الإسلامية، ثم يستطرد قائلاً (والحرص على بقائها ممزوج بدم كل مسلم وعصبه، فهو لا يرى دينه باقياً إلا بوجود دولة إسلامية مستقلة قوية قادرة بذاتها على تنفيذ أحكام شرعة بغير معارض ولا سيطرة أجنبية، وهذا هو السبب فى تعلق أكثر مسلمى الأرض بمحبة دولة الترك، واعتبارهم إياها هى الدولة الممثلة لخلافة النبوة . . إلخ . .)[1]

وكانت الخلافة هى الرابطة السياسية التى ظلت محتفظة وملتزمة فى أغلب مراحلها بتطبيق الشريعة الإسلامية وهى مسئولية الأمة - بجوار مسئولية الخليفة - بمؤسساتها القضائية والتعليمية والعسكرية وأهل الإفتاء والحسبة . . الخ.

وكان هذا الفهم والاقتناع دافعاً لقيام حركة مقاومة جريمة أتاتورك الذي ألغى الخلافة - قامت على أكتاف علماء مصر والهند بصفة خاصة بالرغم من القهر الاستعمارى .

إن تصحيح المفاهيم ضرورة وواجب لكل من يسهم فى كتابة تاريخنا بأمانة ووعى، ويعرّف أجيالنا بحقائق الإسلام كعقيدة وشريعة، وليس مجرد عاطفة دينية تقليداً للتصور الدينى الكنسى.

والدافع الحقيقى وراء هذا التزوير المتعمد هو المطالبة بخلع العقائد الدينية وإقصائها عن الحياة الاجتماعية والسياسية كما فعل الغرب للأسباب المعروفة فى تاريخه، بينما صحّ - بالدراسة العميقة الأمينة للدكتور حامد ربيع - رحمه الله - [أن المجتمعات الأوربية حتى فى أقصى عنفها ضد الكاثوليكية لم تصل إلى حد رفض الظاهرة الدينية من الحياة اليومية ولكنها اقتصرت على رفض المنظمات الكنسية من أن تشارك فى صنع القرار السياسى .

ولنتذكر أن الإسلام لا يعرف المنظمات الكنسية أو الرهبنة الكاثوليكية، وقد تحولت إلى مؤسسات. انه يعرف وحدة فى نظام القيم حيث السياسة تصير ديناً والدين يصير سياسة، ولكن من يستطيع أن يفهم من تلك العقول التى سممتها الحضارة الغربية حقيقة تراثنا الحضارى؟] [2]

---

(١) محمد رشيد رضا (الخلافة) ص١٢٥ / ١٢٦ ط الزهراء للإعلام العربى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨ م وقد صدر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٣٤١هـ - ١٩٢٢م .

(٢) الإسلام والقوى الدولية للدكتور حامد ربيع ص ٢٩ ط دار الموقف العربى بالقاهرة سنه ١٩٨١م .

دوافع الغرب لتحطيم الخلافة :

ومازالت الوثائق تنشـر ، والحقائق تتـضح حول السّر فى سـعى أوروبا إلى الغاء الخلافة العثـمانية ، فقد كان الدكـتور عبد الرازق السنهورى يعيش فى فـرنسا عندما ألغى أتاتـورك الدونمى اليـهــودى الخـلافــة ، فكتب الدكـــتـور السنهـــورى فى مذكّراتـه : (الإسلام قوى لا تهضمـه الجنسية ولا الاستـعمار ، ويحاول الغـربيون أن يحوّلوا الإسلام إلى مجـرد عقيدة لا شأن لها بالقوميـة (بالحكم) حتى يسهل عليهم تفريق الأمم الاسـلامية وهضم ما اسـتعمروه منهـا وفناء كل فريق من المسلمين فى جنسية من جنسياتهم ـ وهذا هو الذى يجب مقاومته اليوم) [1]

ومن الأسرار التى كُـشف عنها النقاب أخـيراً ، تبنّى التبـشير الأمـريكى بالشرق فكرة (القومية الـعربية) ، اذ أسس المبشرون أول رابطة ثقافيـة قومية عربية (الجـمعية السـورية لـلفنون والعلوم سنه ١٨٤٧ وهـى أول مـشـروع بين أبناء المنـطقـة وبين المستعربين من المبشرين الأمريكيين[2] والقومية العربية المنسلخة من الدين كانت أقوى الأسلحة لتفرقة الأمة الإسلامية .

وتتضح حقـيقة دورهم بطعن الخلافـة العثمانيـة فى الظهر لتفتـيت وحدة الأمة بتشـجيع أول جهـد منظم سنة ١٨٧٥ عندما قـام خمسة شـباب تعلمـوا فى الكلية السورية البـروتستانتينيـة (الجامعة الأمـريكية) فى بيروت بتـشكيل جمعيـة سرية [3] وكثرت بعد ذلك مثل هذه الجمعيات وأخذت على عاتقها المشاركة فى إثارة القلاقل والاضطرابات لإضعاف الخلافة كخطوة أولى لهدمها .

يقول عبد الله التـل [وضعت الصليبية الحاقـدة نفسها فى خدمة اليهـودية العالمية

---

(١) مذكرته رقم ١٥٣كتبها فى باريس فى ١٨/ ١/ ١٩٢٤م ص٨٢ من كتـاب أصول الحكم فى الإسلام تاليف الدكتور عبد الـرازق أحمد السنهورى ترجمة د/ نادية عبد الرازق السنهـورى ومراجعة وتقديم د/ توفيق الشاوى سلسلة مهرجان القراءة للجميع (١٩٩٨) ـ مكتبة الأسرة .

(٢) من كتاب (الحملة الأمريكية ـ متعربون وسفراء ورحّاله) تأليف روبرت كابلان ـ ترجمة محمد الخولى ص ٨٥، ٨٦ كتاب الهلال بمصر محرم سنه ١٤١٧ هـ ـ يونيو سنه ١٩٩٦م

(٣) نفسه ص ٨٦ .

لتسخيرها فى مساعدتها على تحقيق خطط الهدم والتخريب. ومن أجل تحالف قوى الصليبية الأوربية فى دول عديدة هى بلغاريا ورومانيا والنمسا وفرنسا وروسيا واليونان وايطاليا، لمحاربة الدولة العثمانية وحرمانها من الهدوء والاستقرار المتفرغ للبناء} (١)

ويحرك ذلك كله عداء الغرب الشديد للأتراك العثمانيين، لأنهم لم ينسوا أن قائدهم الأول فتح القسطنطينية (وكما لم ينس الغرب لصلاح الدين الأيوبى استرداده للقدس، فإن الغرب لم ينس أيضاً للفاتح فتحه القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية، فمازال يوم ٢٩ مايو من كل عام هو يوم حزن عند بعض رجال الدين الغربيين) (٢)

ونود الإسهام فى تصحيح بعض الأغلاط التى حشى بها الاستعمار وأعوانه كتب التاريخ المدرسية وروّجها على ألسنة بعض الكتاب، فإذا صح نقد الخلافة العثمانية فى عهدها الأخير لأسباب داخلية وأخرى خارجية، فلا يصح إغفال عهودها الزاهيةالأولى إذ يقول عبد الرحمن عزام بك - وهو مصرى وأمين الجامعة العربية (سابقاً) {وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصورا ذهبية شمل فيها الناس - الأمن والرخاء والسلام الروحى، ولم يكن فوز آل عثمان كما يظن بعض الناس، مستمداً من سيف وشجاعة، بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع، ولوكان الأمركما يتصوره الذين ينخدعون بآثار الانحطاط من استخدام الطوائف والغيرة بين العناصر والبطش لتغطية الضعف لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة، منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور} (٣)

وبعد القضاء على الخلافة العثمانية توزعت بلاد العالم الإسلامى على الدول

---

(١) عبد الله التل : الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام ص ٧٦ المكتب الإسلامى - بيروت - دمشق ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

(٢) ص٥٨ من كتاب (العثمانيون فى التاريخ والحضارة) د/ محمد حرب المركز المصرى للدراسات العثمانية بالقاهرة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

(٣) نفسه ص ٢٠٩ .

الاستعمارية شرقاً وغرباً وتمكنت اسرائيل من إنشاء دولتها لأن رابطة الخلافة الإسلامية التى جمعت الشعوب قد انفرطت .

ويكفى الإشادة بإحدى مآثر الخلافة العثمانية - أو هى كبرى مآثرها إذا ما قارناها بما نعانية الآن من هوان وانكسار بعد زوال الخلافة - فقد ثبت فى ضوء المقارنة أن المسلمين قد استفادوا من انضوائهم تحت لواء العثمانيين حينا، إذ حالت قوة العثمانيين واحتلالهم لممرات الشرق الأوسط فى القسطنطينية والسويس والشام والبصرة وجنوب الجزيرة العربية، وكذلك الشمال الأفريقى، دون وصول الاستغلال الاقتصادى والأوروبى وامتداد نطاق الامبراطوريات الغربية الاستعمارية إلى هذه المناطق فى وقت مبكر كما حدث فى جنوب شرقى آسيا) [١]

* * *

---

(١) ص٢٤ من كتاب (دراسات فى تاريخ العرب الحديث) د/عمر عبد العزيز عمر ط دار الثغر بالاسكندرية - نوفمبر سنه ١٩٧١م.

(٢) مسئولية حضارة العصر عن «زرع» إسرائيل

ولا يعجب القارئ من استخدام لفظ (الزرع) حيث عبر به اللورد هافتسبرى حقيقةً لا مجازاً عام ١٨٣٨م حيث طالب (بزرع مؤسسة يهودية تضمنها القوى العظمى فى فلسطين) (١)

وإذا قلنا بأن اسرائيل ثمرة دول الغرب ونتاجها فاننا نستند فى حكمنا على دراسة تحليلية تجمع بين الوثائق التاريخية وما يحدث على أرض فلسطين منذ اغتصابها عام ١٩٤٨م باقرار من هيئة الأمم المتحدة .

إن إسرائيل تستند فى قيامها نظرياً على الصهيونية السياسية، وعسكرياً على الإمداد الغربى بالسلاح والعتاد، وتغلّف ذلك كله بتنبؤات من التوراة لإيجاد المبرّر الدينى لوجودها - ويشاركها المذهب البروتستاتنى فى النصرانية - إستناداً على اسطورة استرداد مملكة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف عام !

ولا زالت الأهداف الإسرائيلية ثابتة فى الاستيلاء على المزيد من الأرض، تدعمها نصوص من التوراه، فالآيه التى وردت فى إصحاح الخلق (لذريتك اعطى هذا البلد من نهر مصر إلى النهر الكبير) اصحاح ١٥ آية ٨ وقال موشى ديان فى اغسطس ١٩٦٧م (إذا كنا نملك التوراة، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فيجب أن تكون لنا أيضاً أرض التوراة) (٢)

ويفترض تفسير الآية (وعداً) بمنح اليهود الحق الإلهى فى أرض فلسطين واعتبار الشعب اليهودي شعباً مختاراً - أي تفضيل العرق أو الجنس اليهودي - وهذا التفسير العنصري في حقيقته ليس سوى بدعة من بدع القرن التاسع عشر الأوروبي أيضاً وبها برر الغرب سيادته الاستعمارية على شعوب آسيا وإفريقيا وقدم نفسه كصاحب رسالة حضارية من الرجل الأبيض الذي يحقق (التقدم) أينما ذهب ! (٣)

---

(١) كتاب (ملف إسرائيل) - دراسة الصهيونية السياسية ترجمة د/ مصطفى كامل فوده ص٢٣ ط دار الشروق ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) نفسه ص ١٤٨/١٤٩ - نفسه ص ٤٧/٤٩ باختصار - وفكرة (التقدم) هذه صاغها الغرب وفق تطوراته الاجتماعية والعلمية والسياسية وانصياعا للفلسفة المتلقاة منذ أرسطو مؤسس فكرة التمييز العنصرى بين أهل أثينا وغيرهم من (البرابرة) وهو نفس مفهوم اليوم القائم على الطبقية والذى يزعم أن الغرب هو المثل الأعلى للبشرية، فكلما اقترب شعب من الشعوب من الغرب كلما زاد تقدمه وكلما بعد عنه ازداد تخلفه !

(٣) نفسه .

ومع هذا فمن الغريب كما يذكر جارودي أن تقوم الدعاية الصهيونية على أساس أن (دولة إسرائيل هي الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط ويعلق على هذه الدعاية مندهشاً بقوله (والديموقراطية الإسرائيلية يشوبها تميز عنصري أساسي كما هو الحال في كل المستعمرات حيث يتمتع الرجل الأبيض وحده بالحكم، ويمكن مقارنة هذه (الديموقراطية الإسرائيلية) العجيبة (بالديموقراطية الأمريكية) التي نادت في (تصريح الاستقلال) بالمساواة بين الناس جميعاً ثم أبقت الرق طيلة قرن بأكمله بالنسبة للسود وأطلقت عليهم (تأدباً منها اسم: المؤسسة الخاصة) كما سمحت بمطاردة الهنود الحمر فكانوا يذبحون ويطردون ليستولي البيض على أرضهم .

فإسرائيل إذن ديموقراطية إلا بالنسبة (لزنوجهم) و(لهنودهم) الذين تطلق عليهم القوانين الأساسية في إسرائيل ـ تأدباً منها ـ اسم (السكان غير اليهود) أي الفلسطينيون سواءاً كانوا مسلمين أو مسيحيين) [1] .

واعتمدت الأيديولوجية الصهيونية التى اعتنقها المستوطنون الأوروبيون الذين هجموا على أرض فلسطين على أنهم بالإضافة إلى كونهم ممثلين للشعب اليهودى (طليعة للحضارة الأوروبية ضد البرابرة والأهالى الذين وجدوهم فى فلسطين، ولم يكن موقفهم فى هذا مختلفاً بشكل ملحوظ عن بقية الاستعماريين الأوروبيين البيض فى العالم الثالث)[2]

وينفي جارودي الزعم الإسرائيلي بالحق التاريخي بأرض فلسطين، هذه الأسطورة التي خلقتها الصهيونية السياسية خلفاً للمملكة التى أنشئت منذ ثلاثة آلاف عام لم تدم سوى ٧٣ عاماً ثم انهارت كما انهارت الممالك التي أنشئت عقب الحروب الصليبية .

ولا يخفى على أحد أن إسرائيل الحديثة إنما سيطرت بقوة أسلحة الغرب وأموال الغرب وهي بحق (جيب غربي استعماري عنصري في تلك المنطقة) [3]

---

(١) نفسه ص ١١٣ .

(٢) ص٢٢٤/ ٢٢٥ من كتاب (الإسلام وخرافة المواجهة) تاليف فريد هاليداى ترجمة محمد مستجير ـ مكتبة مدبولى ١٩٩٧م.

(٣) ملف إسرائيل / جارودي ص٦٥ .

وسجل التاريخ الحديث أنه منذ البداية رأى هـرتزل أن إسرائيل لن تستطيع البقاء في الشـرق دون اندماج بالمنطقـة (بشرط أن تكون بشكل أو بآخـر منتدبة مـن قبل الاستعمار الجماعي الغربي) [1]

وهكذا بفضل سـيطرة اليهود وتغلغلهم في الأجهـزة الحاكمة الغـربية قامت دول أوروبا ثم أمريكا بدورها في فرض إسرائيل على شعـوب المنطقة فرضاً فكانت ثمرة من ثمار الغرب وصورة طبق الأصل من (حضارته) !

ويعرض فرناند برودبل لنشأة إسرائيل والدعم الغـربي لها، ثم يأخذ في التساؤل (أليست هذه الدولة الإسرائيلية ثمرة الغرب نفسه .. الغرب المقوت الكريه؟ ونجاح وتفوق إسرائيل وتفـوقها على صعـيد التقنيات الحديثـة الرائع .. أليس هذا النجاح وهذا التفـوق هما ثمرة لرؤوس الأموال التي انـهالت على إسرائيل من كافـة أنحاء العالم كله ؟ واستـعراضات القوة هذه ضد مصر عـام ١٩٤٨م وأيام أزمة تأميم قناة السويس والمسيرة الزاحفة المنتصرة بجيش صـغير عبر صحراء سيناء عام ١٩٥٦م ألا يثير كل ذلك الخوف والعداء والغيرة ؟ وكلها إضافات تنضم إلى الصراع القديم!)[2]

ولكن برودبل أغفل عـوامل أخرى ـ تعد تدفق رؤوس الأموال ومدّها بـالتقنيات الحديثة عوامل ثـانوية وتأتى فى المرتبة التالية إذا ما استـعرضنا الدور الذى قامت به انجلتـرا بتأيد دول الغـرب، وقـد اختـرعت اللفظ الاصطلاحى الذى يتـستـر وراءه الاستعمار، وهو «الانتـداب» ووضعت (فلسطين) تحت الانتداب البريطانى ١٩٢٠م بموافقة (عصبة الأمم) .

وأخذت انجلتـرا تقمع العرب بكل قسـوة إذا ثارو لما يرونه من اغتصاب الـيهود لقطع من وطنهم جـهـاراً (هكذا ضربتـهم بريطانيـا سنة ١٩٢٠ وسنة١٩٢١ وسنة ١٩٢٩ . . . إلخ.

وفى الجهة الأخـرى تعين يهودياً بريطانياً صهيـونياً ليكون المندوب السامى الأول للملك بريطانيا فى فلسطين) . .

---

(١) نفسه ص٧٠ .

(٢) فرناند برودبل (تاريخ وقواعد الحـضارات) ترجمة وتعليق سفير د/ حسين شـرين ص١١٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م .

واصبح اليهـود بفلسطين تحت إمرة حاكم يهودى، وهو أمـر لم يحدث لهم منذ نحو ألفى سنة [1]

ويسجل الأسـتاذ محـمد على علوبة بكتابه (فـلسطين والضميـر الانسانى) هذه (الفضـيحـة التى لا تليق بحضـارة العصر ومـدنية القـرن العشرين أن تتـواطأبعض حكومات الأمم الحرة علـى طرد شعب متجانس من مـوطن آبائه وأجداده. .) وهى أيضاً واحدة مـن أفظع الجرائم التى يسجلها التـاريخ، لأنها ليست إعتـداء فرد على فرد أو إخـضاع شعب لشـعب (وإنما هي طرد أمة آمنة من مـوطنها دفعـة واحدة، ونهب أموالها، وتقتيل أفرادها، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وتشريد ما بقى منهم، وهو ما وقع في هذا العصر الذي يسمونه عصر النور)[2]

إسرائيل منتدبة من قبل الغرب الاستعماري :

منذ البداية، وضع هرتـزل نصب عينيه اعـتماد إسـرائيل على دور الغرب إذ لن تستطيع البقاء في الشرق دون اندماج بالمنطقة كما تقدم .

وربما أسهـمت انجلترا بأكـبر نصيب في هذه الحـركة الكبـرى التي خانت فيـها الشعب الفلسطـيني بعد أن كانت (منتـدبة) على بلاده حيث التزمت خـلال الأعوام العشـرة الأولى من الانتداب بسيـاسة مناصرة الصـهيونيـة كما حـددها بلفور بمؤتمر باريس عام ١٩١٩؛ بنصوص مـدونة ستبقى عاراً في تاريخ بـريطانيا والدول الكبرى وإحدى وثائق الإدانة لحـضارة (العـصر)، قال (في فلسطين نحـن لا ننوي حتى أن نستـشير سكان البلاد . . فـالقوى الكبرى الأربع التزمت بالنسـبة للصهيـونية، وأن الصهيونية (سواءً كانت خيراً أم شراً، سـواءً كانت مصيبة أو (مخطئة) تجد جذورها في تراث قديم وفي ضرورات مباشرة وفي آمال ستأتي، هي أهم بكثير من الرغبات

---

(١) د/ حسن ظاظا (إسـرائيل ركيـزة للاستعـمار بين المسلمين) ص ١٢ ط مـجمع البـحوث الاسلامـية بالقاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م

(٢) محمد على علوبة (فلسطين والضمير الإنساني) ص٤٥ . كتاب الهلال بمصر - مارس سنة ١٩٦٤م

والآراء المسبقة لسبعمائة ألف عربي يقطنون حالياً في فلسطين)[1]

وقامت كل دولة من دول أوروبا بدورها ـ بعضها نعرفه والبعض الآخر ربما تم في طي الكتمان . ولا يخفى تأييد الولايات المتحدة وفرنسا لوعد بلفور من باب الاعتبارات العسكرية والسياسية فضلاً عن اعتبارات دينية سنتناولها تفصيلاً .

وتصدمنا الحقائق التي كشفت عنها الوثائق فيما بعد عن دور ألمانيا في عهد (هتلر) الذي صورته الأجهزة الإعلامية التي يسيطر عليها اليهود بأنه العدو اللدود لهم وغالت غلواً كبيراً فيما تنشر عن إعدام الذين أحرقهم أو قتلهم، بينما كان في الحقيقة يؤدي دوراً متفقاً عليه فيما بينه وبين الوكالة اليهودية .

وقد نشر جارودي بكتابه (ملف إسرائيل) بعض أسرار هذه الخطة، إذ (تلقى المحفوظات السرية للخارجية الألمانية الضوء على مراحل الاتفاق بين الرايخ الهتلري وبين الوكالة اليهودية بغية تيسير هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين، وفي إحدى وثائق الخارجية الألمانية بتاريخ ٢٢/٦/١٩٣٧م يظهر بعض التردد من جانب النازيين، وجاء في تلك الوثيقة « هذا الإجراء الذي تمليه اعتبارات خاصة بالسياسة الداخلية، قد يساعد على تدعيم اليهودية في فلسطين ويعجل بإنشاء دولة يهودية فلسطينية) ولكن هتلر نفسه قرر مواصلة السير في هذا السبيل. ويقول المستشار الدبلوماسي كلود يوس في ٢٧/١/١٩٣٨م (مسألة هجرة يهود ألمانيا . . قد حسمت من جديد بقرار من الفوهرر يؤيد الاستمرار فيها)[2]

ومع هذا فقد استغل اليهود ما أشاعوه من اضطهاد هتلر لهم استغلالاً لا مثيل له إلى الآن بزعم (المحرقة الجماعية) أو (الهولو كوست)، وأدى بهم إلى إقامة مراكز بهذا الاسم بأمريكا في الثمانينات تضم أبنية وأجهزة متخصصة ومعارض وبرامج وأحداث تذكارية ! ونجح اليهود هناك في توسيع دائرة (الهولوكوست) حتى أنشأوا لجنة بهذا الاسم تابعة للرئيس كارتر سنة١٩٧٩م، وأصبحت تقام صلاة تذكارية

---

(١) ص٢٣٨ من كتاب (المسألة اليهودية ـ القبيلة ـ الشريعة ـ المكان .) تأليف إيلان هاليفي ترجمة فؤاد جرير مكتب الخدمات الطباعية ـ دمشق سنة١٩٨٦م.

(٢) ص٧١ من كتاب (ملف إسرائيل) .

خاشعـة بالشموع في القـاعدة المستديرة بالكونجـرس مع اهتمام إعلامي وسـياسي، وسجلت شـبكات التليفـزيون خلال فتـرة البث المسائي (الرئيس ريغـان وهو يبكي بعدما سمع إعـادة لقصص الرعب المألوفة ويخاطب الزعماء اليـهود بصوت مرتعش يشبه الهمس ويؤكد لهم (ولدولة إسرائيل الحالية) استمرار دعم أمريكا الحقيقي)[1]

ويكفينا التعليق المناسب على مثل هذا الحدث بواسطة مؤلف كتاب **(سرقة أمة)** حيث يتـعجب ويشـاركه مـواطنون أمريكيـون ـ عن السبب في عـدم إنشاء هيـئة لتسـجيل الملايين على أيدي الألمان خـلال الحرب العالميـة الثانية، ثم يصـرح بأمانة وصدق عن رغبتـه مما يدل على التحيز الواضح في إنشاء مثل هذه الهـيئة التي تجدد ذكرى ضـحايا اليهود دون غـيرهم (وإذا كان لدينا المسـوغات فعـلاً إقامة الهيـئات والنصب التذكارية للشـعوب والثقافات البـريئة، فأين نحن من الهيئـة الرئاسية التي تأخرنا طويلاً في إنشائها لإحياء الإبادة الجماعية للهنود الأمريكيين في بلدنا)[2] ؟!

إن مثل هذه المفـارقة الصارخة تثـير الشجن وتقودنا مـعه إلى معرفـة مدى الزيف المصطنع في التـعامل مع أجناس البشـر والتحيـز لجنس دون آخر (إن وجـود مثل هذه الصورة الزائفة الساخرة في الحضارة المعاصرة لهو ذكرى مأساوية للفساد والفسوق الذي لا حدّ له وفقدان الإحساس الشامل لدى الملحدين من البشر والأمم على كوكبنا)[3]

ودفع العرب ثمناً غالياً لجرائم لم يرتكبوها ـ لو صحّت المعلومات عن «المحرقة»ـ بل عضّ الغرب الأيدي التي حققت له النصر في الحرب العالمية الأولى على ألمانيا، فقـد وضع العرب كل إمكانيـاتهم تحت تصرف جيـوش الحلفاء، فـالطرق ووسائل المواصلات والمواني والمطارات كـانت في خدمتهم، وكـان البترول العربي كلـه وقفاً على الاحـتياجـات العسكرية بـينما المواطنون يصـرفون منه كـميـات ضئيـلة جداً وبالبطاقات !

كذلك اشتركت الجيوش العربية في الأردن والعراق وفلسطين في القتال، وكانت القوّات العسكرية المصرية تقوم بأعمال الدفاع الجوي عن النقط الاستراتيجية، وكانت

---

(١) من كتاب (سرقـة أمة) تأليف وليم و. بيكر وترجمة د/ سهيـل زكار وعدنان برنيه ص١٤٩، ط دار الإحسان بدمشق ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

(٢) نفس المصدر السابق . (٣) نفسه ص ح ١٥٠ .

جيـوش انجلترا وأمـريكا وفرنسـا تحصل على احتـياجـاتها من الغذاء والـكساء من منتجات العالم العربي وخاصة مصر والسودان والعراق . . .

وبفضل هذه الشعوب وصل الحلفاء إلى النصر النهائي[1]

وكان جزاؤهم جزاء (سنمار)! فهل يليق ذلك بحضارة العصر ؟

إنها حقاً حضارة منزوعة الضمير !

وسجَّل مؤلف كتاب (العرب) هذه الحقيقـة قائلاً (لقد اعترف بلفور بصراحة بأن الغرب قد خدع العرب . . .) وفي موضوع آخر نقل بضعة أسطر من كتاب (أعمدة الحكمة السبـعة) للورانس الذي خدع العرب للقيـام بثورة ضد الخلافة العثـمانية ثم علَّق عليها بقـوله (فإنه لم يكن بإستطاعة لورانس كـتابة تلك الكلمات دون بعض وخزات من الضـمير . . . فإن بريطانيـا لم تحقق الوعود التي دفعت العـرب للثورة ضد الأتراك)[2]

وكانت بريطانيا بارعة في استخدام مبادئ (ويلسون) رئيس أمريكا، إذ بعد شجبه للاسـتعـمار عـقب الحرب العـالمية الأولى، عـاد فأباحـه باسم آخر مـقبـول، أي (الانتداب)، فأصبحت بريطانيا (منتدبة) على أرض فلسطين الذلك فإن مولر ـ وهو من آخر المفكرين الذين مـهَّدوا للثورة النازية ـ قد وصم ولســون بالنِّفاق، لأنه زعم (أنه يرفض إلحاق المستـعمرات بالدول الفائزة، ولا بتوزيعهـا على المنتصرين، ولكنه وزَّع على هؤلاء المنتصرين انتدابات هى في واقع الأمر، مستعمرات)[3] .

ثم نكص ولسون على عقبيه بإعلانه الصريح لانضمامه إلى تصريح بلفور .

وفي تعليق للأستاذ/ فتحي رضوان على هذا التحول، يقول :

[والحق أننا لا نرى فيـما فعله ولســون، من التبشـير بمبادئ جـديدة، ثم تصوّر

---

(١) باختصار من كتاب (إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين) ص٢٤-٢٥ للدكتور حسن ظاظا .

(٢) ص ١٤٩ من كتـاب (العرب) تأليف بيـتر مـانسفيـلد ترجمة انسـجام عـبدالله فوده ـ منـى فرغلي ود/ السيد عمر ـ ط الهيئة العامة للاستعلامات ـ وزارة الإعلام بمصر ١٩٩٥م .

(٣) ص ٢٥٦ من كتاب (مع الإنسان في الحرب والسلام)، فتحي رضوان ط دار المعارف بمصر .

القدرة على الوقوف إلى جـانبها، ثم خيانة هذه المبـادئ، شيئاً غريبـاً، فولسون لم يكن زعيـماً ولا مبـشراً ولا نبيـاً، وإنما كان في مكان هو أسوأ الأمـاكن جميـعاً، للدعوة إلى مبادئ والتبشير بها] . ثم يمضي في تعليل الانحراف باعتبارات السياسة ومصالح دولته[1] .

ويدعـونا تكرار نفس الظاهرة منذ ولسن وحـتى الآن إلى التسـاؤل المعتـاد وفق إحدى نظريات فلسفة التاريخ :

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

لقد بدأ ولسن بـإعلان شعـارات (مثاليـة) برّاقة وكأنهـا أطواق النجاة للشـعوب المقهـورة ـ وتبعـه رؤساء أمريكا ـ بينمـا الغاية كـما تجلّت في الواقع ، هي تحـقيق المصالح السياسية والاقتصادية .

بالمثل أيضاً : استبدال كلمة (الانتداب) بـ (الاسـتعمار)، ثم أصبحت (العولمة) هي البديلة في صياغة جديدة: تؤدي وظائف سلفيها ـ الاستعمار والانتداب ـ ولكن بآليات أشد إحكاماً !

* * *

(١) ص ١٤٧ من كتاب (مع الإنسان في الحرب والسلام)، فتحي رضوان ومن الطريف أنه عنون الفصل الرابع الذي خصصه لمبادئ ولسن بالكلمات التالية : صحوة الموت، مبادئ ولسن ص١٤١ .

(٣)
تعاون الشرق والغرب على إنشاء إسرائيل

ونقصد بذلك شرق وغرب أوروبا إذ كنا نعيش في وهم خصومة الاتحاد السوفيتي لإسرائيل، ومعاونته للعرب في صراعه ضدها، وتضخَّم هذا الوهم الكبير بتصريحات بعض زعماء العرب وإلحاح أجهزة الإعلام في زمن (القومية العربية) والثورات ضد (الرجعية)، ثم مرَّت السنوات وتعرَّت الحقائق لتسفر عن خدعة من أكبر الخدع في السياسة الدولية المعاصرة .

ولعل معرفة أبعاد هذه الخدعة يسهم في إقناع العرب والمسلمين أن الاعتماد - بعد الله عز وجل - يجب أن يكون على قوتهم ووحدتهم وأنه لا أمل بمساعدة تأتي من الشرق أو الغرب، بعد أن ضبط الروس متلبسين بالجريمة، بل ربما زادت عن جريمة الجناح الغربي لأنها تخفَّت وراء الصداقة وطعنت طعنتها القاتلة في الظلام .

وهذا الإجمال يتطلب معرفة بعض التفاصيل كي تعي الأجيال الجديدة تاريخها بدقة وتتعلم الدروس وأولها أن الكيان الإسرائيلي قام - فضلاً عن الحديد والنار - بالمكر والخداع أيضاً، فنحترس من الوقوع في شباكه مرة أخرى .

وقد نشرت بعض الوثائق عن تعاون أقطاب الحركة الماركسية مع أقطاب الحركة الصهيونية [١].

منها ما صرَّح به الحاخام (لويز برونس) الذي يؤكد في كتابه «أغرب من الخيال» ما يلي :

[إن كارل ماركس حفيد الحاخام مردخاي ماركس كان في روحه واجتهاده وعمله ونشاطه وكل ما قام به وأعد له من فكر وأسلوب أشد إخلاصاً لإسرائيل من الكثيرين الذين يتشدَّقون اليوم بأدوارهم في مولد الدولية اليهودية][٢]

---

(١) ص٣٠ من كتاب (موسكو وإسرائيل) للدكتور عمر حليق، ط الدار السعودية للنشر والتوزيع بدون تاريخ

(٢) نفسه ص٣١ .

وبعد استلام الشـيوعيين للحكم بعد الثورة، برئاسة «لينين» أصدرت حكومتهم قرارين رئيسيين : أولهـما : اعتبار العداء لليهود جريمة يعـاقب عليها القانون . . . والثاني : التأييد الكامل لحق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين (١).

وبلغ الدهاء أشده في النداء الموجه إلى الشعوب الإسلامـية في الاتحاد السوفيتي للمؤاخاة بينهم مع بني عمـومتهم من العرب ـ واليهود ضد (الاستـعمار البريطاني) و(الرجعية) .

وجاء في البـيان (المانيـفستـو) الصادر من مـؤتمر (باكو) موجّـهاً إلى الشـعوب الإسلامية :

«يا شعـوب الشرق : أيهـا الجماهيـر المناضلة: إنكم تملكون أغنى بقـاع العالم، وأخصبها وأوسعها، وهذه البقاع كانت مهد الإنسانية ومستودع الغذاء لبقية الشعوب الجائعة . .

. . . إن الاستعمار والرجعية هي التي تفترسكم، وهي السبب في تخلفكم . .

. . . انظروا، مـافعلت بـريطانيا في مـصـر وبلاد العرب وفي مـا بين النهـرين فأحرقت الحرث والأنفس وأخذت البترول . . »

« . . انظروا ما فـعل الاستـعمار البـريطاني في فلسطين، لقد سـاعدوا اليـهود (الأبرياء)! . . فإذا استـمر العداء فـستضعف قـوى الطرفين العربي واليهوي لـيسود الاستعمار البريطاني والرجعية العربية عليهما معاً، وتتمزّق صفوف الجماهير العربية واليهودية معاً . . »(٢)

(ونقلت جريدة «كول هاعام» عدد ١٣ ديسمبر ١٩٦٥م نص مقال هام صدر في كبـرى ألسنة الحكومة التشيكـوسلوفاكية «مـجلة مازيناروودفي بوليتكا» الشـهرية عن «القـوات العسكرية الإسـرائيليـة» وهذا المقـال يشرح بالتـفصـيل تكوينات الجـيش

---

(١) نفسه ص٣١ .

(٢) نفسه ص٤٠-٤١، نقـلاً عن النص الرسمي في مجمـوعة وثائق الكومنترن باللغة الإنجليـزية، طبعة موسكو، مجلة الكومنترن ٢٠ديسمبر ١٩٢٠م .

الإسرائيلـي ويطنب عليه وبشـتى أعمق الثناء، ويؤكـد بأن «الروابط التاريخـية التي جمعت بين القوات التشيكوسلافيـة وبين جيش التحرير الوطني اليهودي (الهاجاناه) أيام حرب الاستقلال اليهودية ضد العدوان العربي الرجعي عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩م لم يعتريها أي فتور، وأن العلاقة والزمالة بين المعسكر الاشتراكي بزعامة السوفيات وبين إسرائيل لا يمكن أن تتأثر بسبب معونة المعسكر الاشتراكي للنظم التقدمية الاشتراكية العربية كالجمهورية العربية المتحدة لإنجاح التحويل الاشتراكي في كل العالم العربي، فمثل هذا التحويل ضروري لسلامة إسرائيل» [1].

[في ٢٣ يونيه ١٩٦٤م أجرى مراسل جريدة «معاريف» التي تصدر في تل أبيب حديثـاً صحفيـاً مع الملحق العسكري السوفـياتي في باريس (أثناء زيارة رئيس وزراء إسـرائيل ليفي اشكول لشـراء السلاح الـفرنسي لإسـرائيل) وجاء في هذا الحـديث التصريح التالي، الذي لا يصدره المسئولون السوفيات أبداً بدون موافقة المراجع العليا في موسكو :

« في استطاعة إسرائيل أن تشتري السلاح أيضاً من الاتحاد السوفياتي وليس فقط من المصادر الغربية . . القضية بالنسبـة لنا هي المتاجرة بالسلاح في صفقات تجارية، فنحن نبيع للجمهورية العربية المتحدة ولغيرها من الدول التي تبحث عن السلاح . . وليس في تعـاملنا التـجـاري بالسـلاح مع مـصـر أي التـزام بالنسـبـة للمـشكلة الفلسطينية . . فنـحن على أتم الصلات مع إسرائيل . . ولم يصـدر ولن يصدر عنا أي عمل أو معونة أو تواطؤ مع مصر أو مع غيرها للإضرار بالكيان السياسي المستقل لإسرائيـل . . هذه هي القاعـدة الحقيـقيـة في السيـاسة السـوفيـاتية نحـو الشرق الأوسط . . إننا نشارك العرب في مكافحة الاستعـمار والرجعية العربية فقط . . ولا نشاركهم ولا يمكن أن نشاركهم في العدوان على إسرائيل][2].

وسجل مراسل جـريدة «النيويورك تايمز» في أوروبا الشرقية في عدد ٣٦ديـسمبر ١٩٤٨ ما شاهده في مـعسكرات التدريب العسكري التي أقـامها السوفيـات لليهود

---

(١) نفسه ص٤٢٠-٤٢١ .

(٢) نفسه ص ٤٢١ .

وغير اليهود من العناصر الإرهابية ومن وحدات الجيش اليهودي أيضاً التي نقلها السوفيات بطائراتهم إلى القطاع الذي احتله اليهود من فلسطين . وفي معسكر واحد فقط استطاع هذا المراسل الأمريكي أن يحصى حوالى ٦٠٠ مقاتل وضابط يهودى وشيوعى يدربهم السوفيات هناك للغدر بعرب فلسطين العزل }[١].

وهكذا يتضح كيف اكتوينا من جناح هذه الحضارة الشرقي المتمثل في الاتحاد السوفياتي سابقاً؟! فقد خدع زعماءنا وشعوبنا، وتجرّعنا على يديه السُّم الذي قدّمه لنا في عسل النظم الاشتراكية الملحدة وكنا قد خرجنا في التّو من احتلال قوات الغرب (وعلى رأسها انجلترا وفرنسا) فكنّا كمن استجار من الرمضاء بالنار . . وسجلت أقلام المؤرخين اشتراكهم بالخدعة في **نكبة القرن (عام ١٩٦٧م)** وصرّح جمال عبدالناصر حينذاك أن السفير السوفياتي قد أيقظه (عند الساعة الثالثة صباحاً ليناشده عدم إقدام مصر على إطلاق الرصاصة الأولى)[٢].

ويفسّر وجيه أبو ذكرى الاستجابة لهذا المطلب ـ أى عدم البدء بالضربة الأولى ـ باعتقاد عبد الناصر (أن الاتحاد السوفييتى سيحارب مع مصر فى حالة التزام مصر ضبط النفس !!) [٣]

وكانت الخديعة الكبرى التى أسهمت فى النكبة، فهل يمكن أن يغامر بحرب عالمية ثالثة من أجلنا ؟ [٤]

ودأب الاتحاد السوفييتى على الخداع منذ وثق صلاتة ببعض البلاد العربية، ففى الاعتداء الثلاثى على مصر سنه ١٩٥٦م (لم تصدر موسكو أى انذار لاسرائيل يوم كانت جيوشها تنسف الابرياء فى سيناء بل أن الانذار السوفياتى جاء بعد أن انتهت إسرائيل من تحقيق كل مطامعها من معركة القنال ـ وهو فتح الملاحة فى مياه العقبة

---

(١) نفسه ص ص٣٩٢ .

(٢) ص٣٦٨ من كتاب (فى أصول النكبة العربية) للدكتور عمر حليق ط دار السعودية للنشر / جده ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

(٣) وجيه أبو ذكرى (مذبحة الأبرياء) ص ٢٦١ المكتب المصرى الحديث سنه ١٩٨٨ م

(٤) نفسه ص ٢١٣ .

والبحر الأحمر للمواصلات الاسرائيلية البحرية).

وبعد معركة القنال ببضع سنوات اتضح ان موسكو لم تكن أبداً عازمة على التدخل العسكرى فى جانب مصر ضد اسرائيل (هذا ما أعترف به الرئيس عبدالناصر نفسه بلسان محرر «الأهرام» الذى كان حاضراً مفاوضات عبد الناصر ـ خروتشوف فى موسكو يوم حصل العدوان الثلاثى على مصر . فكل ما اكده خروتشوف لعبد الناصر هو استعداد موسكو للمناورة الدبلوماسية فى صالح مصر ضد الاستعمار، البريطانى الفرنسى . أما تدخل السوفيات عسكرياً فى جانب مصر ضد العدوان الثلاثى وضد اسرائيل بصفة خاصة فقد استبعده خروتشوف فى صراحة تامة .)[1]

هذا، وقد اقتصرنا في الصفحات السابقة على التعريف بمسئولية حضارة العصر عن إقامة دولة باسم (إسرائيل) في قلب العالم العربي والإسلامي .

ويعزّ علينا أن نمرّ مرور الكرام على فاجعة ضياع فلسطين ـ بالاكتفاء بهذا القدر ـ لأن في أعناقنا مسئولية تعريف أجيالنا الجديدة بالحقائق، لأنها تلقّت تاريخ هذه النكبة مشوّهاً في أغلب صفحاته .

ونسأل الله العون على كتابة بحث مستقل عن هذه الكارثة التي حلّت بأمة الإسلام [2].



---

(١) ص ٤١٢ من كتاب (موسكو وإسرائيل) د/ عمر حليق .

(٢) سنصدر بمشيئة الله تعالى كتاباً بعنوان (نكبة فلسطين من منظور فلسفة التاريخ) .

(٤)
حضارة العصر ... صانعة الإرهاب

إن من أعجب ما نقرأه ونسمع عنه هو إلصاق تهمة (الإرهاب) بكل من هو مسلم، بينما حقيقة الإرهاب انه صناعة إستعمارية غربية استخدمه الغرب فى إخضاع الشعوب لسيطرته بالقوات العسكرية التى لا تعرف ولاتستخدم إلا الحديد والنار لقهر الشعوب المغلوبة على أمرها !

وأمامنا - فى مطلع القرن الواحد والعشرين الميلادى مشاهد جرائم إسرائيل مع أهل فلسطين ومخازى الصرب مع المسلمين والمسلمات فى البوسنة والهرسك، ووحشية الروس مع الشيشان: وكلها تتفق فى اكتساح المدن وحرقها واعمال الإبادة والاغتصاب مما يندى له الجبين .

وإذا علمنا أن اسرئيل من (زرع) «حضارة» الغرب أيضاً، فلا يدهشنا إستخدام سلاح الإرهاب، فى اغتصاب أرض فلسطين بعد تدمير القرى والمدن وقتل المدنيين من النساء والأطفال والشيوخ، ونسف المساكن وإحراق المزارع، وكل ذلك للتعجيل بتحقيق أمر واقع بالقوة وبغير حق وكان شعار بيجن الارهابى السفاّح (قال ديكارت أنا أفكر فأنا إذن موجود، وأقول: أنا أقتل فأنا إذن موجود) (١)

ارأيتم إرهاباً أكثر إجراماً ووقاحة من هذا الإعلان الذى يعبر عن استخفاف بكل القيم والأعراف الإنسانية ؟ !

لقد أصبح القتل غاية لإثبات الوجود - أى على اشلاء سكان فلسطين الأصليين أصحاب الأرض المغتصبة .

[وكانت هذه «الدولة» اليهودية تحتل ضعف ما خولته لها قرارات التقسيم التى صدرت عن الأمم المتحدة، وثلاثة أضعاف المساحة التى اقترحها الكونت برنادوت. هذا فضلا عن عقارات وأملاك وأموال لعرب فلسطين تركوها يوم شردهم الغدر

---

(١) ص٣٩ من كتاب (الصهيونية والعنف، للرائد حسين الطنطاوى دراسة علمية بعد حرب أكتوبر ط دار الشعب سنه ١٩٧٤م .

اليهودى الإرهابى الذى مارسته العصابات اليهودية على الأسلوب الماركسى الإرهابى، والذى اتقنته الحركات اليسارية الثورية فى الاتحاد السوفياتى وأوروبا الشرقية - وهى مسقط رأس الاغلبية الساحقة من الزعماء والقادة العسكريين الصهيونيين الذين تولوا إرهاب عرب فلسطين والغدر بهم - من بن غوريون إلى مانيويلكسى هوشه منه، ومناحيم بيجام، ومئات غيرهم من كبار الإرهابيين وصغارهم، الذين وردوا من روسيا السوفياتية قبل عام ١٩٤٧ومولد النكبة الفلسطينية، كما وردوا مدججين بالسلاح والتدريب الإرهابى فى أوج الصراع العربى - اليهودى المسلح فى اعوام ١٩٤٧ و ١٩٤٨] (١)

إنها وقائع (الإرهاب) المتكررة بواسطة الغرب المتحضّر، وكثيراً ما يقع بعد عقد معاهدات، وذلك منذ إبادة المسلمين من أسبانيا : يقول چوستاف لوبون :[وعاهد فرديناند العربَ على منحهم حرية الدين واللغة، ولكن سنة ١٤٩٩م لم تكد تحلُّ حتى حل بالعرب دور الإضطهاد والتعذيب الذى دام قروناً . والذى لم ينته إلا بطرد العرب من إسبانية، وكان تعميدُ العرب كَرْهاً فاتحةَ ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المُعَمَّدين على أنهم من النصارى، ولم تَتِمَّ عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كردينالُ طليطلة التقىُّ، الذى كان رئيساً لمحاكم التفتيش، بقطع رءوس جميع من لم يَتَنَصَّر من العرب رجالاً وشيوخاً وولداناً، ولم يَرَ الراهب الدومينيكىُّ، بِليدَا، الكفايةَ فى ذلك فأشار بضربِ رِقاب من تَنَصَّر من العرب ومن بَقِىَ على دينه منهم، وحجتُه فى ذلك أن من المستحيل معرفةَ صدق إيمان من تنصر من العرب، فمن المستحبِّ، إذَنْ، قتلُ جميع العرب بحد السيف لكى يَحْكُمَ الربُّ بينهم فى الحياة الأخرى ويُدْخِلَ النارَ من لم يكن صادقَ النصرانية منهم، ولم تَرَ الحكومة الإسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومينيكىُّ الذى أيَّدَه الإ كليروسُ فى رأيه لِماَ قد يُبديه الضحايا من مقاومة، وإنما أمرت، فى سنة ١٦١٠م، بإخلاء العرب عن إسبانية، فقُتل أكثر مهاجرى العرب فى الطريق، وأبدى ذلك الراهب البارع، بليدا، ارتياحَه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين فى أثناء هجرتهم، وهو

(١) ص ٣٥٧ من كتاب (موسكو وإسرائيل) للدكتور عمر حليق. ط - دار السعودية للنشر بدون تاريخ.

الذى قَتَل مئةَ ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت مُتَّجِهةً إلى إفريقية [1]

وختاماً لهذه الفواجع، ننهى المأساة بما قرره لوبون : [وخسرت إسپانية بذلك مليونَ مسلمٍ من رعاياها فى بضعة أشهر، ويُـقَدِّر كثير من العلماء، ومنهم سيديّو، عددَ المسلمين الذين خَسِـرتَهم إسپانية، منذ أن فتح فردينانْدُ غَـرْناطةَ حتى إجلائهم الأخير، بثلاثة ملايين، ولا تُعَدُّ ملحمةُ سان بارتلمى إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يُؤْبَه له، ولا يسـعنا سوى الاعتـراف بأننا لم نَجِد بين وحـوش الفاتحين من يُؤاخذ على اقترافه مظالمَ قتلٍ كتلك التى اقْتُرِفت ضِدَّ المسلمين .

ومما يُرْثَى له أن حُرِمَت إسپانية عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافيةُ والصِّناعية] [2]

صور من الإرهاب فى العصر الحديث

وكذلك يسـرد مؤلف كـتاب (العـذاب الذى لاقاه المسلمون علـى أيدى الغرب) أحداثاً رهيبة، وسجل أبشع وقائع الإرهاب والقرصنة، ويلفتنا إلى أن أمريكا لها باع طويل أيضاً فى الاسهـام بجرائم الاستعـمار بشكله القديم، على غيـر الشائع عنها بأنها رائدة الاستعمار الجديد !

وامتد نشاطها الاستعمارى منذ القرن التاسع عشر بعقد معاهدات مجحفة بالخليج العربى والتبشـير بالمسيحية وراء سـتار التمريض وبناء المستشفـيات لاصطياد المرضى والمحتاجين .

ونجحت أمريكا فى إنشـاء أول جامعة أمريكيـة فى بيروت سنه ١٨٦٦ ، وكونت منظمتـان للتبشيـر (الأولى هى «المرسلون الأمريكيون» والثانـية هى «جمعيـة التوراة الأمريكية» فكان شـعار الجمعية الأخيـرة هو «نشر المسيحية فى العـالم كله فى حياة جيل واحد» [3]

---

(١) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيطر ص٢٧٠/ ٢٧١ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه سنة ١٩٦٩م

(٢)نفسه ص٢٧١ .

(٣) ص٤٧ من كتـاب (العذاب الذي لاقـاه المسلمون) تاليف عـميد مـهندس كامل الشـرقاوي ـ مطابع الأهرام ١٩٩٨م .

أما الإرهاب الأمـريكي فى إندونيسيـا فإنه سلسلة من المآسي والفـواجع ونكتفي بواحدة مـنها، عندما استـاء سكان سـومطرة من تهريـب الأفيون والويسكـى وفتح أمريكا لجنودها بيوت الدعارة، فانطلقت بأوامر وزير البحرية الأمريكية سفينة حربية ضخمة إسمها (بوتاماك) ونزلت منهـا فصيلة من المارينز (البحرية الأمريكية) ودكت البيوت دكا وحصدت الأرواح حصـداً بينما كان الأهالى خارجين من المساجد عقب صلاة الفجر، وكتب قائد الفصـيلة الأمريكى إلى وزارته يصف المأساة ليعلن بفخار انه (تم تحويل المـدينة كلها تقـريباً إلى أنقاض وأكـوام من الرماد، وأغلبـية البـيوت الكبيرة لم يبق منها غير الأنقاض) (١)

ومن الصفـحات المجهـولة فى تاريخ استعـمار بريطانيـا لمصر سنه ١٨٨٢م ـ أن أمريكا اشتركت بأربع قطع بحرية كبيـرة مع الأسطول الانجليزى (وتسببت فى تدمير الإسكندرية وقتل عشرات الآلاف من المصريين بعد القصف العشوائى للمدينة)(٢)

ونكتفي بهذا القدر لإيقاظ الوعى بما يدور حولنا ونطالعه ليل نهار، ولا نندهش إذا نظر العالم الغربى إلى الروس وهم يحولون مـدينة جروزنى إلى أنقاض ويقتلون الشيـوخ والنساء والأطفال فى الشيـشان فتلك عـادة القوم، وهذه طبيعـتهم التى لا تستنكر أية جـرائم، طالما أنها تمارس فى بلاد العالم الثـالث ـ وأغلبه من المسلمين، بل مما يزعج الانسان أن هذه الأعمال تُعد من المفاخر فلا يجد الأمريكان بأساً (حتى يومنا هذا فى نشيـدهم الوطنى لمشاة البحرية بالتـغنى بمعركة (درنة بليـبيا ١٨٠٥م) قائلين «من تلال مونتـيسوما إلى سواحل طرابـلس، فى السماء، وفى الأرض، فى البحر خضنا معارك الوطن» (٣)

وتكررت أعمال الإرهاب البـشع فى بلاد الجزائر وتونس وليبـيا والجزائر. . وفى سنه ١٨١٤! (أمطرت سفن الأسطول الأمريكى مـدينة الجزائر بالقنابل والقذائف من القنابل الثقيلة وقدر عدد القتلى بعشرات الآلاف) (٤)

أما فى تونس، فقد كتب «سبيرس» المؤرخ الأمريكى المختص بالبحرية الأمريكية يقول عـام ١٨٩٧م ـ أى بعد دخول تونس بنحـو ٩٠ عاماً يقـول (لم تخف امريكا

(١) نفسه ص٥٣ . (٢) نفسه ص٤٥ .

(٣) نفسه ص٢٥ . (٤) نفسه ص٢٨ .

اعتداءاتها على شعوب العالم الإسلامى، ولم تستطع أن تصور للعالم أنها صديقة العالم الاسلامى . . وأنها حجة للسلام وصديقة الإسلام الدائمة . . وتحت القصف العشوائى لمواسير مدافع السفن الأمريكية أملت على حاكم تونس شروط الصلح، وهو ما لم يحدث له مثيل من قبل) [1]

الإرهاب الروسى

وأما ما فعله الاتحاد السوفيتى وبلاد أوروبا الشرقية فى المسلمين فلا يكفى الإحاطه به مجلدات. ولقد عانى المسلمون أكثر من غيرهم فى ظل هذه الأنظمة الجائرة، وكان هدفها الثابت زحزحتهم عن دينهم وإلقائهم فى أتون الإلحاد منذ قام الشيوعيون بالثورة واستلموا الحكم فى روسيا (وكان إفناء المسلمين والقضاء على الإسلام فى رأس قائمة الأعمال التى ينوونها لأن الشيوعية هي بنت اليهودية الفاجرة واليهود يعلمون بأن المسيحية لا تستطيع أن تقف تعاليمها وتاريخها أمام اليهودية لأنها هي ذاتها فرع من اليهود وتشربعها هو التشريع اليهودي ذاته، ولكنهم يخشون الإسلام لأنه هو الدين الوحيد الذي يستطيع أن يقف في وجه اليهودية وغير اليهودية من الديانات والعقائد أو من الأديان السماوية ومن الأديان الأرضية)[2]

ولو انتقلنا من إرهاب الدول التي تملأ أجهزة إعلامها أدمغة العالم بالصراخ عن حقوق الإنسان ورعايتها له بينما هي لا تتورع عن اغتياله إذا سمحت لها الفرصة ووجدت في ذلك مصلحتها إذا، انتقلنا إلى إرهاب الجماعات لتبين أنها تنتمي إلى دول الغرب أيضاً، وقد عَدَّد الأستاذ/ شريف الشوباشي بعضها خلال العشرين عاماً الماضية فقط، فمن أشهرها جماعة من بادر - ماينهوف في المانيا الغربية، والألوية الحمراء في إيطاليا، والعمل المباشر في فرنسا، والإيتا في أسبانيا، وجيش التحرير السمبيونيزي في أمريكا وجيش التحرير الأيرلندي . . . وهناك أيضاً منظمة غربية سرية تدعى «السيف» . .

---

(١) نفسه .

(٢) ص٩٠ من كتاب (المسلمون أمام التحدي العالمي) للدكتور إحسان حقي بيروت ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، وتشير د/ زينب عبدالعزيز إلى التحالف السياسي بين اليابان وبين اليهود لضرب ما يطلقون عليه «العدو المشترك» ومع نفيها لتحقيق ذلك لأن الله حق ووعده حق ر (الدين عند الله الإسلام) ص١٠٤ تنصير العالم .

وأضاف إلى ذلك أن الجماعات الصهيونية هي التي تمارس الإرهاب في الشرق الأوسط، ومنها (انفجار فندق الملك داود واغتيال الكونت «برنادوت» مبعوث الأمم المتحدة، واغتيال وزير الدولة البريطاني «اللورد موين»، وانفجار أول لغم ناسف في وجه الضابط المصري الشهير «مصطفى حافظ»)[1] .

* * *

(١) شريف الشوباشي (هل فرنسا عنصرية) ؟ ص١٨١ مطابع الأهرام ١٩٩٢م .

(٥)
نهب ثروات الشعوب وإجهاض حركات النهضة الذاتية

لا يحتاج المرء إلى الاستدلال على استغلال الغرب لثروات الشرق، ونحن نعيش واقع استغلال أهم ثرواته: البترول، التي تتحكم فيه شركات البترول العالمية (وكيف تحايلت للحصول على أكبر المنافع من الدول المنتجة والدول المستهلكة، سالكة في ذلك كل الطرق حتى القضاء على الشركات الصغرى وتهديد أمن الدول)[١]

ولا ننسى واقعة تأميم إيران للبترول في عهد مصدق عام ١٩٥١م الذي فجَّر النزاع بينها وبين إنجلترا، واتضح بصورة جليَّة مدى أنانيتها واغتصابها لحقوق الشعب الإيراني بشروط مجحفة (ولقد جاء في رسالة من الدكتور «مصدق» إلى المستر «تشرشل» أن الدافع على التأميم هو الرغبة في تحسين الأحوال الاقتصادية، ذلك أنه خلال المدة التي تولت فيها الشركة استغلال موارد إيران لم تكن مستعدة إطلاقاً للنظر في حقوق الشعب الإيراني ومراعاتها، حتى طبقا (لامتياز دارسي) واتفاق عام ١٩٣٣م غير المشروع)[٢]

ولما كان التأميم ضربة عنيفة لإنجلترا إذ حرمها من مورد ضخم، حرَّكت أذنابها وقام الجنرال «زاهدي» فأطاح بحكومة مُصَدَّق الذي حوكم وصدر الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات [٣]

وكان الرجل مصراً على الاستمساك بمصلحة بلاده أمام العروض والوساطات التي قامت بها أمريكا حينذاك .

يقول الدكتور حسين مؤنس :

(إن خبرات الدنيا تنصب إلى الغرب فتتحول إلى مصنوعات وتعود إلى بلاد غير

---

(١) ص١٥٨ من كتاب (بترول المسلمين ومخططات الغاصبين) د/ عيسى عبده ، تقديم/ أحمد إسماعيل يحيى دار المعارف سنة ١٩٨٣م .

(٢) نفسه ص ١٩٢ .

(٣) نفسه ص١٩٦ ، ودارسي هذا هو (وليام نوكي دارس) مغامر إنجليزي حصل على امتياز من شاه إيران في ٢٨/ ٥/ ١٩٠١م، ونصوص الامتياز ـ كما ذكر الدكتور/ عيسى عبده ـ تبين بجلاء مبلغ الغُبن الذي وقع على إيران مما جعل كاتباً محايداً هو (أنتوان موهر) يصفة بأنه أغرب امتياز من نوعه في تاريخ الأزمنة الحديثة ص١٥٥ .

المتحضرين - بمفهوم الأوربيين إذ ذاك - في إفريقية وآسيا لتباع بعشرات أمثال أثمانها الأولى) . . .

وعلى سبيل المثال كانت تخرج من موانئ الهند وحدها كل سنة عشرة آلاف سفينة معظمها إنجليزية محملة بمحاصيل الهند تُشترى بأبخس الأسعار، ثم تُعاد مصنَّعة بالثمن الذي يراه الرأسمالي البريطاني .

إنها عملية استنزاف لخيرات الهند (كانوا يقولون قبل أن يعرفها الإنجليز إنها أغنى بلاد الدنيا، ثم تحولّت شيئاً فشيئاً أثناء الإحتلال إلى أفقر بلاد الدنيا) [1] .

وبعد ذكر نماذج مماثلة لتصرفات الدول « المتحضرة » التي جعلت من إفريقية وآسيا مزارع ومجالات للإستغلال لأهل الغرب، أو إستيلاء أمريكا على ما تريد من أراضي المكسيك واحتكارها لكل نشاط أهل أمريكا الوسطى والجنوبية، يعلّق الدكتور حسين مؤنس في النهاية بقوله : (بهذا المال المنهوب أعادت أوروبا بناء نفسها . فتجددت مدنها وموانيها وفُرِشت أراضي هذه وتلك بمكعبات البازلت التي كان أهل المستعمرات يُجلبون كالبهم لتسويقها، فتألقت باريس ولندن على الخصوص برداء خلاب يدعو إلى العجب دون أن يفكر غربي واحد في آلام المساكين الذين عُصرت دماؤهم لتبني بها هذه الحضارة)[2] .

وكذلك الدراسة العلمية التي قام بها الدكتور عيسى عبده رحمه الله لنيل درجة الدكتوراه أدَّت به إلى تحذير المسلمين من الغاصبين الذين (يترقبون كل فرصة لهم في أرض المسلمين وفي ثرواتهم المستكنة في أوطانهم. . وهم يتعقبون المنافع لاستنزافها، على حين يدخرون ما في بطون أرض أوطانهم حين تنضب آنية المسلمين ويجف ما في جيوبهم من موارد) [3]

(١ ـ ٢) الحضارة ص ٣٣١، د/ حسين مؤنس، ويقول أيضاً بكتابه « التاريخ والمؤرخين » (حطَّم المستعمرون كل الصناعات التقليدية التي اعتمدت عليها أهل المستعمرات طوال تاريخهم قبل الاستعمار، لكي يفرضوا منتجاتهم ويبيعونها بالسِّعر الذي يريدون، ص ١٣٥ ط دار المعارف مصر سنة ١٩٨٤م .

(٣) نفسه ص٢٥٤ ويقول د/ احمد إسماعيل يحيى (ومن عجب أن نرى المسلمين اليوم يهرعون بأموالهم لكي يودعوها في مصارف الغرب ويستثمروها في تنمية بلاد غير بلادهم، بل هي بلاد تحارب المسلمين في عقيدتهم وأوطانهم ! ص١٩

وللقارئ صورة من صور تعامل الدول الإستعمارية مع الشعوب المقهورة - تجمع بين استعباد البشر والظلم البيِّن : [فإن بريطانيا التي جنَّدت بضعة الوف من أهل الهند بلغت في سنة ١٩١٨ - ٩٨٥ الفاً - ودفعت بهم إلى أتون الحرب، والتي أخضعت اقتصاد الهند وكل شيء فيها خلال الحرب لاعتبارات تلك الحرب . .] لم تكافئ الهنود ولو بكلمة شكر بل أخذت في إصدار القوانين لمدّ الأحكام العرفية وجعلت الحكَّام العسكريين حكّام البلاد الشرعيين، وعندما احتفل الهنود الهندوكيون بأحد أعيادهم في أبريل سنة ١٩١٩ ظنّاً أن الاجتماعات الممنوعة هي الاجتماعات السياسية وحدها - لا الدينية - أصدر الجنرال الإنجليزي (داير) أمراً لجنوده بإطلاق النّار عليهم وبلغ عدد القتلى نحو ستمائة، وزاد عدد الجرحى عن ذلك بكثير [١] .

وتعد عمليات نهب ثروات الشعوب واستغلالها أمراً هيناً بالمقارنة بتجارة الرقيق التي زاولها الإنجليز وأقاموا إمبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس بأرجائها المترامية وقد قارن الدكتور / محمد عوض محمد بينها وبين حروب الأفيون مع الصين، فكتب - بينما تكاد السطور تضجّ من الغضب الممزوج بالازدراء (والحقيقة أن حرب الأفيون - على بشاعتها ووحشيتها وبعدها عن أبسط معاني الإنسانية - لا تعدوا أن تكون حلقة من سلسلة نظائرها من الأعمال الإستعمارية ومن قبل حرب الأفيون بقرون انهمك الإنجليز في تجارة الرقيق، فكانت سفنهم وعصاباتهم تُغير على سواحل إفريقيا المغربية وتختطف السكان الآمنين مجموعات مختلفة، فيها الشيخ الهَرِم والعجوز الشَّمطاء والشبان والشَّابات والصبية والرُّضع والنساء الحوامل، تُشحَن كلها في بطون السفن، ثم تباع في أسواق الأمريكتين كما تباع السلع.

وقد عكف الإنجليز على هذه التجارة التي احتكروها عدة قرون وجمعوا منها الثروات الطائلة واستخدمت هذه الثروات في بناء الأساطيل وتمويل المصانع، وبناء تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف. وبعد أن شبعت البطون البريطانية، واتخمت من تجارة الرقيق أخذ أصحابها ينادون بأنها تجارة وحشية، وعملٍ منافٍ للإنسانية وأخذوا يفخرون بأنهم أول مَنْ ألغى الإتجار بالعبيد !)[٢]

---

(١) (مع الإنسان في الحرب والسلم) فتحي رضوان ص١٧٨/ ١٨٠ ط دار المعارف بمصر .

(٢) ص ١٠٤ من كتاب (الإستعمار والمذاهب الإستعمارية) د/ محمد عوض محمد ١٣٧٦هـ دار المعارف بمصر ط٣ سنة ١٩٥٧م .

إجهاض حركات النهضة الذاتية :

يرى (روچيه دوباسكويه) أن هناك اتجاهاً دائباً للمبالغة في الزعم بعقم الحضارة الإسلامية والتهويل من شأنها خلال القرون الأربع الماضية مع أن أبدع عمارة للمساجد مثل تلك التي بناها سنان في تركيا، أو مسجد الشاه في أصفهان ترجع للقرنين السادس والسابع عشر، وإحدى أعظم الإنشاءات المعمارية على مر العصور تاج محل بناه أمير مسلم في أجرا في الهند في عهد لويس الرابع عشر، كذلك لم تكن عبقرية الحضارة المغولية ميّتة عندما سقطت تحت السيطرة الغربية . . .)[1]

ويقول حيدر بامّات (من الخطأ أن يزعم، كما فعل بعض المؤلفين، أن العالم الإسلامي عاد لا يعرض غير طور من الانحطاط منذ أواخر القرن الثالث عشر، فقد عرف مختلف الدول التي صدرت عن دولة الإسلام أدواراً رائعة من النهضة دامت قروناً في بعض الأحيان، وذلك قبل أن تنتهي، تحت ضربات أوروبة المتحالفة وضربات روسية في القرن التاسع عشر إلى هذه الحال من الانحطاط العميق التي تسير قدماً للخلاص منه، فإذا ما ألقيت نظرة شاملة على مصاير هذه الدول كانت لنا فكرة أكثر صواباً عنها)[2]

وكانت هناك في وقت الهجمات الاستعمارية (ثلاث إمبراطوريات إسلامية عظيمة كانت تحكم العالم القديم المعروف كله هي :

١ ـ الإمبراطورية العثمانية، التي كانت سيطرتها المباشرة تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، ومن حدود النمسا إلى وسط القارة الإفريقية ويمتد نفوذها بالتبعية على العالم الإسلامي كله باعتبارها صاحبة الخلافة .

٢ ـ الإمبراطورية المغولية التي كانت تسيطر على شبه القارة الهندية وما جاورها.

٣ ـ إمبراطورية الشرق الأقصى وهي وإن لم تكن ذات إدارة مركزية إلا أنها كانت

---

(١) ص١٥٢ / ١٥٣ إظهار الإسلام (روچيه دو باسكويه) الشروق سنة ١٩٩٤م .

(٢) ص٤٦٥ من كتاب (مجالي الإسلام) حيدر بامات ترجمة عادل زعيتر ط عيسى الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م .

تتألف من ممالك وإمارات إسلامية كثيرة قوية، . . أى بلاد إندونيسيا وما يليها)[1]

يقول اللواء عبدالحميد شرف :

(وقد دأبت الدول الأوروبية على عرقلة الحركات والمحاولات الإصلاحية بشتى الوسائل، والتدخل في شئون الدولة العثمانية بشتى الحجج مثل حماية الأقليات المسيحية والحصول على امتيازات خاصة مما أضر بالاقتصاد العثماني. . وقد أسرف الأوروبيون في إساءة استخدام هذه الامتيازات ودفع الدولة للإستدانة بفوائد عالية، فإذا واكب ذلك إثارة العديد من الفتن بين الشعوب العثمانية فلنا أن نتصور فاعلية معاول الهدم التي تعرَّضت لها الدولة وقد ذهب الأوروبيون في ذلك شأوا بعيداً لدرجة تدبير المذابح الجماعية للأقليات سواء كانت مسيحية أو إسلامية .

كما ازداد النشاط التبشيري سواء كان كاثوليكياً مدعوماً من فرنسا وإيطاليا، أو بروتستانتياً مدعوماً من إنجلترا وأمريكا.

وبينما كان الغرب يستكمل بناءه الصناعي والتنموي كانت يده الأخرى تحمل السلاح لإجهاض أية محاولة إصلاحية في العالم الإسلامي وشغله بالدفاع عن حياته ووجوده)[2]

ولم تكتفِ الدول الإستعمارية بإجهاض حركة النهضة الذاتية، بل حرَّمَت على مستعمراتها استخدام قواتها للدفاع عن نفسها، وكذلك تحريمها الحصول على (العلم والإدارة) حسب توصية توينبي.

ويذكر حيدرمات أن إنجلترا حظرت على فارس (إيران) أن تكون صاحبة سفن حربية في الخليج الفارسي واستولت على جزائر البحرين، ويغدو تطويق فارس تاماً وفي الوقت نفسه تبدي الدولتان المتنافستان نشاطاً سياسياً قائم على النفوذ الاقتصادي والقبض على ثروات البلد)[3]

---

(١) ص١٠ من كتاب (المسلمون أمام التحدي العالمي) د/إحسان حقي بيروت ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م .

(٢) ص١٣٩ / ١٤٠ من كتاب (الصراع الكبير بين الشرق والغرب ومراحل تطوره عبر ١٣ قرن) لواء أ.ح.م/ عبدالحميد علي شرف ، مطابع الأهرام ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

(٣) حيدرامات ـ مجالي الحضارة ص٤٦٩ .

ومما أدى بباحث إنجليزي - إ.ج . براون إلى تحميل الدولتين تبعة تدهور أحوال فارس فوصفها سنة١٩١٢م (تقع تبعة ما يسود فارس الآن من نفس منحطة وآمال متحطمة ومن فوضى على روسية وبريطانية العظمى رأساً، وإذا ما قُضي ذات يوم بتقديم حساب عن ذلك كانتا ملزمتين به)[١]

وقس على ذلك ما فعلته دول أوروبا مع الخلافة العثمانية إذ اتحد الغرب على حربها وإثارة الفتن بين شعوبها وإعاقة أي مظهر من مظاهر الإصلاح والنهضة (وقد دأبت الدول الأوروبية على عرقلة الحركات والمحاولات الإصلاحية بشتى الوسائل، والتدخل في شئون الدولة العثمانية بشتى الحجج مثل حماية الأقليات والحصول على امتيازات خاصة . .) [٢]

ومهما اختلفت الآراء في نوايا محمد علي، غير أن ما يستدعي الإنتباه هي حركة التصنيع الكبرى التي قامت على أكتاف الشعب المصري وشملت الغزل والنسيج وصناعة سبك الحديد وألواح النحاس والصابون والزجاج ودبغ الجلود وبناء السفن النيلية والبحرية وإنشاء مدارس الهندسة، والطب والصيدلة، والولادة والألسن والمعادن والمحاسبة، والفنون والصنائع والزراعة والطب البيطري [٣]

صحيح أنه استخدم لضرب الخلافة العثمانية وإجهاض حركة محمد ابن عبدالوهاب، ولكن الذى يعنينا هو ما تم من إقامة نهضة حقيقة بواسطة الشعب المصرى عندما سنحت له الفرصة .

ويعلق اللواء عبدالحميد شرف على ذلك بقولة (ومن المعروف أن كل مصنع ذكرناه كان به عمال، ومديرون، وإنتاج، وطاقة محركة . ولما كان التحضر يقاس بكمية طاقة الحركة التى يستخدمها الإنسان لنفسه، فكم وحدة طاقة كان يستخدمها شعب مصر الذى لم يتجاوز سبعة ملايين نسمة فى ذلك الوقت) ؟ [٤]

---

(١) حيدرمات ص ٤٧١ .

(٢) ص ١٣٩ من كتاب (الصراع الكبير بين الشرق والغرب ومراحل تطوره عبر ١٣ قرنا) لواء ا .ح . م عبد الحميد على شرف ط الاهرام ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

(٣) باختصار - المصدر نفسه ص ١٥٤ وجاء الاستعمار البريطانى سنه ١٨٨٢ م فأجهض ذلك كله .

(٤) نفسه ص ١٥٦ .

ثم جاء الاستعمار البريطانى سنة ١٨٨٢م لتحطيم ذلك كله وتحويل مصر إلى مزرعة للقطن لمدّ مصانع بريطانيا بأرخص الأثمان ثم إعادة تصديره بأغلاها !

وهكذا تتبدّى الحقائق واضحة للعيان، فلو (لم تتآمر الدول الغربية على الخلافة العثمانية ثم على محمد على، لقامت الدولة الإسلامية المركزية بتمويل عملية تصنيع كبرى، لا تتخلى عن القيم الدينية الإنسانية) [١]

ويضاف إلى ذلك كله حرص الغرب على حرمان الشعوب من امتلاك أدوات التقدم العلمى . يقول د/ عبدالغنى قاسم :

(ولا أزال أتذكر ما كتبه «أرنولد توينبى» فى كتابه «مستقبل الإسلام» عام ١٩٦٢م [ينبغى على (الغرب) أن لا يتيح (للمسلمين)، و(الهنود)، و(الصينين) فرص الحصول على (العلم والإدارة) المتقدمين، لأن هذه الشعوب تشكل التهديد المستقبلى لقومه)[٢]

* * *

(١) د/ عبد الوهاب المسيرى و د/ هدى عبد السميع حجازى ص٢٠ من مقدمتهما كمترجمين لكتاب (الغرب والعالم) تأليف كافين رايلى (عالم المعرفة) ـ الكويت رمضان سنة ١٤٠٥هـ ـ يونيو١٩٨٥ .

(٢) مقال بعنوان (اسقاط السقف الحضارى على كل ما ينفع ويضر جريمة حضارية) د/ عبد الغنى قاسم (أستاذ بجامعة صنعاء) الشرق الأوسط ١/٧/١٩٩٨م.

(٦)
إحياء الدين وتوظيفه سياسياً

برعت حضارة العصر والأبواق التابعة لها فى إخفاء الحقائق وراء السلوكيات المرئية لنا، إذ خدعتنا - ولاتزال - بالتظاهر بخلع ثياب الدين لأنه من (مخلفات العصور الوسطى) بينما المتابع اليقظ لمجريات الأمور يرى أننا نعيش قرناً ليس أقل تعصباً أو تطرفاً من القرون الوسطى فالذى غاب عن بعض زعمائنا فى التحرر الوطنى أن العالم الغربى (مؤمنه وملحده) يتعامل مع العالمين العربى والإسلامى على أساس دينى محض وكيف سيطرت المعتقدات الدينية على رؤساء وساسة أمريكا وانجلترا (وعد بلفور) - بل منذ سنه ١٨٨٠ أصدر رجل الدين وعضو البرلمان الانجليزى (لورانس أوليفانت) كتاباً أسماه (أرض جلعاد) دعا فيها لطرد العرب مثلما حدث للهنود الحمر فى الولايات المتحدة الأمريكية، لأنهم (غير جديرين بأية معاملة إنسانية) فهل هناك غرابة بعد ذلك فى أن يطالب (بن جوريون) بمعاملة العرب على نحوما عاملت أمريكا سكانها من الهنود الحمر الأصليين ؟ !) [١]

كذلك يتضح للدارسين للعلوم السياسية وتاريخ تطوراتها، والمتابعين للظاهرة الدينية فى الغرب، يتضح لهم بما لا يدع مجالاً للشك أن الظاهرة نمت وأينعت، إذ (عاد الدين الكاثوليكى ليؤسس التجانس والانصهار كما فعل من قبل فى الدولة الرومانية المقدسة) [٢]

وهل نغفل أيضاً الارتباط الدينى بين النصرانية واليهودية الملئ بالأسرار - كما تجليه الباحثة - ريجينا شريف - وتلمحه فى الارتباطات والعلاقات فى ميادين (الآداب والتاريخ والعقائد والسياسة حتى التراث الغربى مليئاً بالأساطير اليهودية)[٣]

---

(١) د/ محمد عصفور (جريدة الوفد القاهرية) بتاريخ ٢ / ٧ / ١٩٨٨م .

(٢) الدين والدولة فى الواقع الغربى (دراسة لموقع ودور الدين فى الدولة القومية) د/ عبد العزيز صقر ص ٣٩ - دار مكتبة العلم للجميع ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

(٣) الصهيونية غير اليهودية ص١٨ (جذورها فى التاريخ الغربى) ريجينا الشريف - ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز سلسلة كتب ثقافية (عالم المعرفة) - الكويت ربيع الأول ١٤٠٦ هـ - ديسمبر ١٩٨٥م .

ومن الظواهر التى يجب أن تستأثر باهتمامنا فى مجال استخدام الدين سياسياً فى الغرب، هى ظاهرة إلقاء أجهزة الإعلام الغربية الضوء الشديد على التدين فى العالم الإسلامى وحده والتشويه المتعمد للإسلام كالترويج لكتاب سلمان رشدى الكذاب الأشر) فى الوقت الذى تصمت فيه صمتاً مريباً عن تمام النفوذ السياسى للكنيسة الكاثوليكية، فضلاً عن حقيقة إنشاء إسرائيل على أساس توراتى ورفع شعار (المناداة بعودة اليهود إلى فلسطين كمقدمه حتمية لعودة المسيح المنتظر تبعاً لنبوءات العهد القديم) (١)

والدراسات العلمية الجادة التي تصدر تباعاً لتكشف عن هذا الجانب الذي يتعمد العلمانيون إخفاءه لإظهار حضارة العصر وكأنها حضارة لا دينية ! فهل هو استخفاف بالعقول؟ أم إيثار للراحة اكتفاءً بترديد أقوال أجهزة الدعاية المضللة؟!

وقد عنى الدكتور عبدالعزيز صقر بدراسته العلمية الموضوعية بتتبع دور الدين في الغرب كدافع للسلوك السياسي والقيادي وكرابطة اجتماعية وكعامل للتوحيد والتجانس والاندماج السياسي، وخلص إلى النتائج الآتية :

أ - لايزال الدين أحد متغيرات السلوك السياسي الفردي .

ب - لاتزال الكنائس تدافع عن حقها في الممارسة السياسية أو على الأقل التوجيه السياسي .

جـ - ولايزال الدين عاملاً هاماً في عملية التكتل الاجتماعي والوحدة السياسية .

لقد أمسك الباحث بتلابيب الغرب متلبساً بتوظيف الدين سياسياً ببلدانه جميعاً بلا استثناء (فرنسا - انجلترا - اليونان - إيطاليا - ألمانيا - إسبانيا - بلچيكا - هولندا - أمريكا) (٢)

---

(١) الصهيونية غير اليهودية ص ٥٤/٥٥ ريجينا الشريف ترجمة أحمد عبد العزيز (جذورها فى التاريخ الغربى) سلسلة (عالم المعرفة) - الكويت - ربيع الأول ١٤٠٦ هـ - ديسمبر ١٩٨٥م .

وتبدو الازدواجية الصارخة للغرب فى رأى الأستاذ محمد سلماوى فى الحملات اليومية التى يشنها يومياً إزاء الإسلام وشعائره مع استماتته فى الدفاع عن سلمان رشدى بزعم الدفاع عن حقه فى التعبير، فى الوقت الذى تمارس فيه جميع أنواع القيود الرقابية ضد رجاء جارودى لإعلانه رأيه فى عدد ضحايا النازى من اليهود . (مقال بعنوان : خطاب السفير الأمريكى) الأهرام - ١٦ / ٣ /١٩٩٨م .

(٢) الدين والدولة في الواقع الغربي (دراسة لموقع الدين في الدولة القومية) ص٢٨٥ . د/ عبدالعزيز صقر - دار ومكتبة العلم للجميع بالقاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

وإذا تتبعنا النبض الديني في أوروبا وأمريكا لطال بنا المقام ـ ولكننا نكتفي بلقطات تغني عن الاستقصاء (فإن المفاهيم والقيم والممارسات المسيحية متغلغلة في الحضارة الأوروبية). يقول أحد السويديين (ربما كان السويديون أكثر الناس تديناً في أوروبا، ولكنك لن تفهم هذا البلد أبداً إلا إذا أدركت أن مؤسساتنا وممارستنا الاجتماعية وأسرنا وسياستنا وأساليب حياتنا كلها متأثرة بتراثنا اللوثري)[١]

كذلك فإن أكثر الأمريكيين يؤمنون بالله (ويعتقدون أنهم شعب متدين، كما يترددون على الكنائس بأعداد كبيرة)[٢]

ولم ينبثق الإحياء الديني فجأة في السنوات الأخيرة ـ كما يوهمنا هانتجتون ـ بل له جذوره المتغلغلة في أعماق التراث الثقافي هناك ـ وربما منذ مارتن لوثر ـ، فقد تعانقت المسيحية الصهيونية مع الصهيونية اليهودية لتحقيق هدفها المشترك : (خلق دولة يهودية حيث لا يرحب بغير اليهودية مواطناً فيها)[٣]

ويقوم بهذه الحملات بعض كبار رجال الدين في أمريكا أمثال (لندس وفالوبل وسواغارت وروبرتستون) ويتمركز نظام الإيمان عندهم ـ وعند حوالي ٤٠ مليون إنجيلي أصولي ـ حول أرض صهيون الإنجيلية)[٤]

ومهما أخفت أجهزة الإعلام ـ والكتّاب المرتزقة ـ الوجه الحقيقي لهذه الحضارة، فإن الدارس الذي يتتبع تاريخها وفلاسفتها وسياستها يرى طابع التدين بعين لا تخطئ، وأصبح مألوفاً العثور على التفسير الديني للصراع بين أوروبا والشرق في كتب مثقفيهم وساستهم ومؤرخيهم وفي مقدمتهم أرنولد توينبي.

وها هو الكاتب ـ المثقف جداً كما يصفه الأستاذ جلال كشك ـ (ألن مورهين) مؤلف كتابيّ (النيل الأبيض) و(النيل الأزرق) يقول :

(١ـ٢) ص٤٩٣ من كتاب (صدام الحضارات : إعادة صنع النظام العالمي) صامويل هنتجتون، ترجمة طلعت الشايب تقديم د/ صلاح قنصوه ١٩٩٨م (سطور) .

(٣) النبوءة والسياسة : جريس هايل ص١٠٧ .

(الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية) ترجمة محمد السّماك دار الشروق ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

(٤) نفسه ص١٩، بينما يرى د/ محمد عصفور إن الحركة الضخمة للأصوليين المسيحيين تضم ما يجاوز المائة والثلاثين مواطن أمريكي، ويشغل بعضهم أكثر وأرفع المناصب والمواقع السياسية والعسكرية والإدارية والفنية والاقتصادية) (الوفد في ٣٠/٧/١٩٨٨م .

[في نهاية ١٨٨٣ كان يمكن القول بأن الصراع بين الإسلام والمسيحية قد وصل إلى نتيجة مشرِّفة للطرفين، فقد استولى الإنجليز على مصر ولكنهم خسروا السودان. لقد انتهت هذه القلاقل (ثورات عرابى والمهدي) ـ كما رأينا ـ بالهزيمة الساحقة للإسلام على ضفاف النيل .. ولكن ثبت أنها هزيمة مؤقتة ليس إلا .. ومنذ سنة ١٩٠٠ وهناك تقدم منتظم للإسلام في شرق إفريقيا ووسطها، وفي الوقت الحاضر يكسب المسلمون مؤمنين جداً أكثر من المسيحيين .. لذا فما من رجل عاقل، يغامر بالقول بأن ذلك هو نهاية الأمر، التناقض بين الدينين.. الشرق ضد الغرب يبدو وكأنه جزء دائم من الواقع الإفريقي وهذا الصراع يمضي أحياناً تحت الأرض ، وأحياناً فوقها .. ولكنه مستمر ومحتوم كالنيل نفسه) .

وعبارته عن فوق الأرض وتحتها توحي للقارئ بدوام الحرب النفسية بأسلحتها في الغزو الثقافي التي لم تنقطع بعد انحسار الثورات أو النزاع المسلح .

كذلك فإن هذه السطور لا تُخفى فكرة حتمية الصراع، مما دفع للأستاذ جلال كشك أن يعلق بسخرية (ها هو كاتب أمريكى «مثقف جدًا» يكتب عن الصراع الأبدى والمحتوم، وقراء مثقفون فى أوروبا وأمريكا يقبلون على قراءة هذا التفسير حتى يروج المؤلف وتطبع كتبه فى جميع اللغات البيضاء فور صدورها) [(١)]

وهذا يدل على أن «ألن مورهين» وجد صدىً واستحساناً لآرائه بين أبناء حضارته، وإلاّ لما ذاعت وانتشرت كتبه .

وعندئذ يتعذر قبول آراء بعض مثقفينا المنكرين للشمس فى وضح النهار،فها هو (العدو يرفع الصليب .. ويؤرِّخ حروبه كانتصارات للصليبية على الإسلام .. ثم يطلب من الضحية أن ترفض التفسير الدينى) [(٢)]

ويأتى بعد «مورهين» «رشتر» الذى يعلل هزيمة الصليبيين بتعصب المسلمين[(٣)]

ويجب ألانُفَاجأ إذن بآراء هنتجتون الأمريكى فيما أعلنه من صراع الحضارات، وإصباغ الصراع بصبغة دينية لأنه امتداد لعلماء ومؤرخين قبله، وقد طفح على

---

(١) ص ٢٦ من كتاب (الماركسية والغزو الفكرى) ، محمد جلال كشك الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة محرم ١٣٨٦ هـ ـ مايو ١٩٦٦م .

(٢) نفسه ص ٢٧ . (٣) نفسه ص ٣٣ .

السطح في السنوات الأخيـرة، وقد عدَّد صـمويل هنتجتـون منها الكثيـر، نقتطف بعضها في وقائع لا تحتمل الإنكار :

إن الهجرة من شمـال أفريقيا إلى فرنسا تولِّد عداوة بين الفرنسـيين، وتجد قبولاً متزايداً بهجرة البولنديين الكاثوليك [١]

والرئيس بوش أثناء حرب الخليج الأخـيرة يكثر من ذكر الله والتَّـضرع إليه باسم الولايات فقوَّى من شعور العرب بأنها كانت (حرب دينية) [٢]

و(. . العداوات الحادة والصراعات العنيفة متغلغلة بين الشعوب الإسلامية المحلية والشعـوب غير الإسلامـية، في البوسنة خـاض المسلمون حرباً دموية ومـدمرة مع الصرب الأرثوذكس واشتبكوا في عنف آخر مع الكروات الكاثوليك) [٣]

ويعلن الزعيم الصربي إحيـاء الذكرى الستمائة للمعركة الكبـرى، كرمز للحرب المستمدة مع المسلمين [٤]

(وعندما أصبحت العقيدة الأرثوذكسيـة والكنيسة الأرثوذكسية مرة أخرى عوامل مركزية في الهويّة القـومية الروسية، التي ضغطت بدورها العقـائد الروسية الأخرى إلى الخارج وأهمها الإسلام) [٥]

وعقب تفكك يوغوسـلافيا سنة ١٩٩١م تحركت كل من «سولوفنيـا» و«كرواتيا» نحو الإستـقلال واللجوء إلى القوة الغربـية بحثاً عن التأييـد . . وأمام ضغط الرأي العام الألمانـي اعترفت الحكومـة بهمـا ـ وضغطت على الاتحـاد الأوروبي ليعـترف باستقـلال الدولتين . . كما لعب الفاتيكان دوراً رئيـسياً، فأعلن البـابا أن (كرواتيا) هي (متراس المسيحية الغربية) [٦]

وما لم يذكـره هنتجتـون ـ لأن كتابه صـدر منذ سنوات ـ الزيارة الأخيـرة للبابا لأرض فلسطين، وحرص الإسـرائيليين على إعداد برنامج خاص لاستـغلال الزيارة سياسيـاً (وفرضوا عليه زيارة أماكن تحـمل أبعاداً سياسية مـثل النصب التذكاري لما سمي بالمحـرقة في مديـنة القدس وزيارة حائط المبكى الـذي هو في الأصل الحائط الغربي لسـور المسجد الأقصى والذي يُطلق عليـه «حائط البراق» لأن النبي مـحمد

(١-٢-٣-٤-٥-٦) (صدام الحضارات)، ص همنجتون صفـحات ١١٢، ٤٠٤، ٤١٤، ٤٢٤، ٤٣٨، ٤٥٨، وهو يرى أنه في أواخر القرن العشرين شهدت انبعاثاً أو صـحوة دينية في أنحاء العالم. هذا الانبعاث تضمن اتساع الوعي الديني وبروز الحركات الأصولية، وأدى ذلك إلى تقـوية الاختلافات بين الأديان ص١٠٦، كذلك يقرر أن الدين قوة مركزية، وربما كانت هي القوة الرئيـسية التي تُعبِّئ الناس وتدفعهم ص١١٠ .

ﷺ ربط البراق عنده حينما صعد إلى السموات العلا في ليلة الإسراء والمعراج)[1]

ويأتي مسك الختام فيما صرّح به رئيس أمريكا أخيراً إذ عندما سُئل كلنتون عن وضع الدين في المجتمع ، أجاب : { إننا جميعاً جزء من مجتمع عالمي في تطور دائم، وقد شهد هذا المجتمع تغيرات سياسية وتقدماً تكنولوجياً، وتصاعداً في التنمية الإقتصادية .غير أنه بالإضافة إلى ذلك نواجه بأخطار قديمة وجديدة من أبرزها الإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل، ومخاطر البيئة، والفقر والجوع والصراعات الحادة . وفي إطار مواجهتنا لهذه التحديات والمتغيرات، هناك شيء ثابت يتخطى الحواجز الجغرافية، وحدود الجنس واللون وهو الدين، ولاشك أن له دورا بارزاً في إضفاء روح المسئولية وبث اليقين على القدرة على مواجهة المشكلات، نحن في حاجة للدين كمصدر من مصادر القوة، ومنبع من منابع اليقين } [2] .

وكانت إجابته عن سؤال في شكل عبارة ذكرها أحد القسس من أن (صلواتنا هي التي تساعد على تماسك العالم)

الدين والفكر الفلسفي :

وقبل الانتهاء من هذا المبحث، نرى أخيراً إزالة الوهم عن الفصل التام بين الدين والحياة الثقافية للغربيين، فالحق أن له صلة وطيدة بالعلوم ـ والفلسفة أيضاً ـ بينما قدموا لنا فلاسفتهم فى صور مزيفة لإخفاء العقيدة الدينية لتخدير شبابنا وحثهم على إهمال الدين .

يقول أستاذنا الدكتور محمد على أبو ريان ـ رحمه الله تعالى (لقد تبين من خلال معالجتنا لموضوع أزمة المنهج فى العلوم الإنسانية كيف أن تلك العلوم، والفلسفة من بينها بصفة خاصة، كانت تنوء بتدخل اللاهوت منذ القرن السادس عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر، فلقد جاءت المذاهب الفلسفية المختلفة ولاسيما

(١) من مقال بعنوان (هل كان قلب البابا مع الفلسطينين وسيفه مع الإسرائيليين؟!) بقلم د/محمد على الفرا عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة ـ الأردن ـ جريدة الشعب القاهرية في ١٤/ ٤/ ٢٠٠٠م ص١٣ ومما يذكر أن البابا اتبع تقليداً يهودياً ووضع في فتحة من فتحات الحائط رسالة تضمنت «طلباً» من الرب المغفرة لمعاناة اليهود هذا نصها «يا إله الآباء والأجداد: يا من اخترت إبراهيم وذريته لنقل اسمك إلى الأمم: إن الحزن العميق يغمرنا لتصرفات الذين تسببوا على مدار التاريخ في عذاب أبنائك ونطلب صفحك وغفرانك ونحن ننشد أن نقيم أخوة حقيقية مع أهل العهد » .

(٢) من مقال بعنوان (رؤية إمبراطورية) بقلم السيد يسين ، جريدة «الأهرام» في ٢٩/٦/ ٢٠٠٠ م .

عند ديكارت ـ ذات طابع لاهوتى ظاهر على الرغم من ثورتهم على العقبات التى وضعتها الكنيسة ورجالها فى وجوههم، إذ مهما حاول الفيلسوف الزعم باعتماده على العقل المحض إلا أن عقيدته اللاهوتية لا بد أن تظهر كموجّه لا شعورى فى كتاباته)![1]

ويجرنّا الحديث عن «ديكارت» الذى استغلّ منهجه الشكى أسوأ استغلال، وكأنه المنهج الصحيح الوحيد فى دراسة العلوم الإنسانية إلى بيان موقفه من الدين.

إن ديكارت هذا ـ كان متديّناً، ويقربما جاء به الدين عنده حسب ما أكده الدكتور منصور فهمى الواسع الاطلاع على التراث الغربى، فقد نقل عنه قوله (يصح أن أشك فى كل شئ لأصل إلى اليقين، ولكن شيئاً واحداً لا أشك فيه هو السّلوك.. أنا أتعامل مع الناس، ولابد لى من نظام للسلوك، وبما أنه ليس عندى وقت لإثبات نظرية أخلاقية، فلابّد أن أسلّم بالقواعد التى جاء بها دين الجماعة .. لابدّ لى من ضمير يشعرنى بأن السرقة حرام، والكذب حرام، ولابد من تسليمى بما جاء به الدين فى هذه الناحية) [2]

مكانة الدين فى إسرائيل:

يسجل تاريخ نشأة إسرائيل وواقعها اليوم أن الدين يحتل مكان الصدارة فى فلسفتها السياسية والاجتماعية والثقافية والتربوية (يعترف الكُتّاب الإسرائيليون بالحالة السيئة التى تعانيها الدولة الإسرائيلية والمجتمع الإسرائيلى فى المرحلة الراهنة. فعلى مستوى الدولة .. بدأت تتحول عمليا من دولة علمانية إلى دولة ثيوقراطية (دينية) .. ليس فقط من خلال النشاط المتصاعد للأصولية اليهودية .. ولكن كذلك من خلال تعديل بعض النظم الأساسية فى الدولة .. إلى نظم دينية وفى مقدمتها النظام القضائى للدولة.. بتحويل قسم من هذا النظام إلى «الحاخامية» الأمر الذى أوجد نظامين قانونيين وقضائيين فى إسرائيل)[3] وحتى إذا أخذنا بوجهة

---

(١) ص ٣٨٨ / ٣٨٩ من كتاب (أسلمة المعرفة ـ العلوم الانسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية) للدكتور محمد على أبو ريّان دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ١٩٩٧ م .

(٢) مجلة (لواء الإسلام) شوال سنه ١٣٧٧ هـ ـ مايو سنه ١٩٥٨ م

(٣) من مقال بعنوان (ما بعد الصهيونية) للأستاذ المجذوب ـ الأهرام ١٩٩٨/٧/٥ ص٦ .

النظر التي تصبغ الدولة اليهودية بالعلمانية فإن هذا الرأي غير مسلَّم به ـ لأن الصراع بين العلمانيين والمتدينين قد حُسم لصالح المتدينين، ويشهد بذلك تشدد سياسة حكام إسرائيل الحالية بتأييد الأحزاب الدينية المتطرفة .

وبفرض تأرجح الكفتين، فإن الطرف العلماني ـ وهو ينقد القيم الدينية فإنه يعتز في نفس الوقت ويحتفي (بالتاريخ القديم والتنقيب فيه بحثاً عن جذور للمشروع العلماني) .

وفي الدراسة التحليلية التي قام بها الدكتور إبراهيم البحراوي للأدب العبري استخلص من كتابات أحد كتاب اليهود هناك أنه حاول (أن يحل التناقض بين رفض القيم الدينية اليهودية وبين الحاجة إليها كحافز للنجاح في المشروع القومي، وأن يقيم جسراً بين التراث الديني وبين عقلانية القرن العشرين وذلك من خلال تصور يفيد أن الشعب اليهودي يمكنه أن يكون مخلصاً لتاريخه دون الالتزام بالجانب الديني مع التأكيد على ضرورة الحفاظ على التقاليد التاريخية لليهودية لأن قطعها يعني، من وجهة نظره، قطع مصدر الحياة اليهودية . فالماضي هو جذور الشعب) [1].

وإذا تأملنا هذا الجدل، لا نجد فرقاً كبيراً بين المعسكرين، إلا في التحلل من الجانب الديني السلوكي .

أما التراث الديني التاريخي فهو موضع اتفاق في ضرورته وتقديسه لأنه حسب وصفه (مصدر الحياة اليهودية) .

وحسماً لهذا الجدل النظري المتبادل بين الآراء على صفحات الكتب، فإن الواقع الذي تعيشه إسرائيل هو في الحقيقة ممارسات فعلية لعقائدها الدينية ويدحض أي شك في كونها دولة دينية .

ويصور الأستاذ صلاح الدين حافظ هذا الواقع بقوله [فإسرائيل تكاد تكون «الدولة الدينية» الوحيدة في عالم اليوم بكل ما تعنيه الدول الدينية من بناء ونظم وقوانين وسياسات وممارسات . . فقد قامت ومنذ البدء وحتى الآن على أساس ديني «دولة يهودية» وفق تعاليم دينية وتوسعت وتمددت وفق تصورات دينية وعاشت وتعيش حياة يومية وفق أوامر ونواه دينية، بصرف النظر عن كل ما يقال عن

---

(١) ص٢٤٠/٢٣٩ الدين والدنيا في إسرائيل، د/ إبراهيم البحراوي ـ كتاب الهلال ـ مايو سنة١٩٩٨م.

الديموقراطية والعلمانية والدولة المدنية .

● وإسرائيل في سبيل تدعيم دولتها الدينية انتهكت وتنتهك كل حقوق الإنسان غير اليهودي الذي احتلت أرضه وطردته منها وهدمت مدنه وقراه وشرّدت أجياله جيلاً بعد جيل وهي أيضاً التي تمارس الاضطهاد الديني علناً وتحت سمع وبصر العالم وبرعاية أمريكا حامية وضامنة، ضد غير اليهود، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين بعد أن اغتصبت منهم كل شئ حتى الأماكن المقدسة] (١).

التخدير بالحوار الديني :

رأينا كيف أصبح الدين محركاً للسلوك السياسي من وراء الستار، كما اتضحت الروح العدائية في العصر الحديث سافرة عن وجهها بالرغم من محاولات الإخفاء لكي لا توقظ الحمية الدينية لدى المسلمين .

ثم اتخذ الغرب وسيلة جديدة، إمعاناً في تخدير المسلمين في شكل ما سُماه (بالحوار الدينى) بينما هو فى الواقع يخطط لإبادة الإسلام أو - على الأقل - تشويه صورته: بعد تساقط الأنظمة الشيوعية كسقوط أوراق الشجر فى فصل الخريف، أخذت العقائد الدفينة في القلوب، تظهر على الألسنة وفي الدوائر السياسية والكتابات الصحفية الغربية، فقد كتب جاك جوليار بمجلة (لونوفيل أوبزرفاتور Lenowvriel Observateur) مقالاً يتساءل فيه: هل نحن مهددون بحروب دينية جديدة؟! ثم يستشهد حينذاك بثلاثة أحداث وهو اختطاف الطائرة الفرنسية في الجزائر، واستمرار الحرب في جمهورية البوسنة والهرسك، وعمليات القتال التي تشنّها قوات الروس ضد الشيشان (وفي الحالة الأولى كان المعتدي مسلماً أو على الأصح إسلامياً، وفي الحالتين الثانية والثالثة كان المعتدي مسيحياً أو على الأصح من أصل مسيحي أو شيوعي الانتماء) . . وترى المجلة أن المسيحيين الأرثوذكس في البوسنة هم الذين يظهرون كل يوم دليلاً على تعصبهم . . بينما يكافح غالبية المسلمين في سراييفو من أجل حرية العقيدة والتعددية .

(واختتم جوليار مقاله بقوله: لقد كنت منذ أربع سنوات في ليبزج على مأدبة

---

(١) مقال بعنوان (صواريخ الزيارة والتحريض على الأصدقاء) بجريدة الأهرام في ١٧/٢/١٩٩٩ بقلم صلاح الدين حافظ .

عشاء مع سياسي من ألمانيا الاتحادية كـان مكلفاً بتشكيل الحزب الديمقراطي المسيحي في إقليم ساكس ومع صـحفي روسي شيـوعي . . وشرحت لهما أثناء العـشاء أن الإسلام أصـبح الدين الثاني في فرنسـا . . ويضيف كاتب المقـال : عندما نظر إليَّ الإثنان بدهشـة وتعـاطف . . وقـال الصحـفي الروسي، على أي حـال سـواء كنا ديمقراطيين أو شيـوعيين أو اشتراكـيين، فإن المهم هو أننا جميـعاً مسيحـيون وعقَّب جوليـار على ذلك بقوله : عندئذ أدركت مغـزى سقوط سـور برلين وأدركت مدى التغيير الذي حدث في العالم)[1]

ويقول الدكتور هوفمان :

(لقد أمضيت ٤ سنوات من عمري مديراً إعلامياً لحلف الأطلنطي، ورأيت كيف يخططون لإبادة الإسلام وتشويه صورته)[2]

ويتبين من هذه الشـهادة أن دعاوي الحـوار ما هي إلا نوعـاً من تخدير الضحـية ليسـهل الإجهاز عليـها، وهو ما فطن إليـه شيخ الأزهر السابق ـ الشـيخ جاد الحق رحمـه الله تعالى ـ فكان رده في إحدى لقاءات الحـوار بين أهل الديانات للمندوب البـوذي، أن هذه اللقـاءات لن تحل مـشكلة السـلام في المنطقـة (لأن هناك طرفـاً إسرائيلياً معتدياً وطرفاً عربياً مجنياً عليه، وعلى من يدعو إلى السلام حقاً أن يتوجه أولاً إلى الطرف المعتـدي لكي يوقف عداواته، حـيث لا يعقل ولا يفـيد أن تطالب الضحية بأن تقيم سلاماً مع الجاني!)[3]

ويعلق الأسـتـاذ فهـمي هويدي علـى ذلك بقولـه (أستطيـع أن أروي عشـرات القصص من ذلك القبـيل، وكلها تشير إلى أن دعوات الحوار التي كـان يدعى إليها المسلمون على الأقل، لم تعـبر عن رغبات مـخلصة وجادة في الفهم أو التـفاهم، وأنها في أغلب أحـوالها كانت تستـر بين طياتها إما أصـابع إسرائيلية خفـية، وإما مساعي تفتح العالم العربي والإسلامي لعمليات التبشير)[4]

ويوصف الحوار أيضاً، بأنه (الطُعم) الذي يستدرج المسلمين للخروج عن دينهم،

---

(١) نقلاً عن مجلة (العالم الإسلامي) ١٣ جمـادي الأخر ١٤١٦هـ ـ ٦ نوفمبر ١٩٩٥م تصدر عن إدارة الصحافة برابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة .

(٢) ص١٤٥ من كتاب (أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ) للدكتور جمال عبدالهادي سنة ١٩٩٧م .

(٣) ص١٩٠ من كتاب (المقالات المحظورة)، فهمي هويدي دار الشروق ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

(٤) نفسه ص١٩١ .

(والقيام بتحريف أكيد للقرآن الكريم الذي أدان التثليث والتجسُّد بصريح العبارة في العديد من الآيات)(١)

وتذكر الدكتورة زينب عبدالعزيز في كتابها الخطير (تنصير العالم ـ مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني) أن حكمة الحوار (من المفردات التي دخلت اللغة الفرنسية في القرن السادس عشر، وبالتحديد في عام ١٥٨٠م، وتعني تبادل وجهات النظر بين طرفين.. أي أنه تبادل قائم على الأخذ والعطاء وعلى التغيير والمجازفة ـ إذ أن كلاً من الطرفين يكون عرضة لتغيير موقفه، إلا أن التعصب الكنسي لا يأخذ بهذا المفهوم، ويستعين بالحوار كذريعة لكسب الوقت بغية التسلل بلا مقاومة تذكر)(٢)

وهكذا تستمر الحروب الصليبية في أشكال جديدة :

دوام الحروب الصليبية :

اختلف الباحثون حول دوافع الحروب الصليبية، وهل كانت بواعثها اقتصادية وسياسية اختفت وراء الدين لكسب الرأي العام الأوروبي حين ذاك، أم هي في جوهرها حرب دينية سافرة .

والراجح الرأى الثانى إذ لولا معرفة قادة الغرب بمكانة الدين فى نفوس الأوربيين ما أعلنوها حرباً مقدسة (فالحروب الصليبية كما يؤكد المدافعون عنها هى حروب مقدسة موجهة من الله لحماية الدين المسيحي ودرء خطر تهديد الزحف الإسلامى عنه حيث وصل التوسع الإسلامى إلى جنوب فرنسا، وطوقت الدول الأوروبية المسيحية وأصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية..) (٣)

واستمرت الحروب الصليبية ـ بعد انقطاعها عسكرياً ـ فى أشكال جديدة يختلط فيها الغزو الفكرى والنفسى والخلقى تتجمع فى إطار التبشير والاستشراق (٤)

وفوجئ الغرب باستمرار تقدم الإسلام بالرغم من كل أنواع الغزو العسكري والثقافي .

---

(١) ص٩٩ من كتاب (تنصير العالم ـ مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني) للدكتورة زينب عبدالعزيز ، ط دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

(٢) نفسه ص ١٠٨ .

(٣) ص ٦٨ من كتاب (الإستعمار كظاهرة عالمية) د/ حورية مجاهد عالم الكتب بالقاهرة سنه ١٩٨٥م

(٤) نفسه ص ٦٩

ففي نص لإحدى الوثائق التي تكشف هدف الحملة على الإسلام وهي ما نشرته جريدة (التيمس/الإنجليزية) فقالت: (كان الاعتقاد قديماً أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء وقد يتقدم إلى الحضر، وما كان أحد يصدق أنه يستطيع أن يخترق المناطق الاستوائية وأن يصل إلى جنوب أفريقيا .

وقالت : ويختلف الغربيون في اتجاههم الفكري نحو مستقبل الإسلام في أفريقيا فمن قائل إن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية مادام يسير (أي الإسلام) في الخطوط التي رسمها له الاستعمار، بينما يرى آخرون ضرورة (الحد من تقدم الإسلام) عن طريق نشر البدع والخرافات (أي نشر البدع المخالفة لأصل الإسلام لإفساده وإزالة حقيقة الإسلام عنه مع بقاء اسم الإسلام عنواناً له) حتى يكون ذلك بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد)[1]

ومبعث دهشتهم أن الإسلام لم يتوقف بالرغم من الحرب الضروس، وعقلوا أنه دين الفطرة، إذ يجد الاستجابة في القلوب الباحثة عن الحق والمتعطشة إلى راحة القلب وطمأنينة النفس، بالرغم من تقصير المسلمين المعيب في الدعوة إليه وفق الطرق التي تتبعها أجهزة التبشير !

لذلك فقد حرصوا على منع تقدمه، أو على الأقل الحد من تقدمه وفق الخطوط التي رسمها الاستعمار، أي نشر البدع لإفساده ليتحول إلى مجرد عنوان !

ويتضح لمن يتابع تنفيذ هذه الخطط أنهم نجحوا إلى حد كبير ثقافياً واجتماعياً وسياسياً: ففي المجال الثقافي والتعليمي، دأب المستشرقون على تعظيم الفرق المنشقة عن الجماعة أمثال الخوارج والشيعة، وإثارة الأفكار المخالفة لعقائد السلف كالمعتزلة والجبرية والقدرية وغيرها من المذاهب الكلامية. أضف إلى ذلك فرض دراسة الفلسفات الغربية بالجامعات قديمها وحديثها بكل مذاهبها وروّادها، فتخرّجت أجيال لا تعرف عن دينها إلا القشور بالمقارنة بما تعرفه عن دقائق مذاهب الغرب الفلسفية، وفي المجال الاجتماعي توسيع دائرة التصوف وتشجيع الفرق الصوفية وتحبيذ نشر

---

(١) الأستاذ أنور الجندي : مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام) ص٢١ ، مجمع البحوث الإسلامية الأزهر ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢ م .

البدع، أو تكوين ما يسمى بفرق الإنشاد الديني بصورة مشابهة للنصرانية كالموالد وبناء مساجد جديدة على الأضرحة، وسياسياً، دأب الاستعمار على تشجيع الفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة مع زرع فرق جديدة كالبهائية والقاديانية، والترويج لآرائها تحت شعار الإسلام)[1]

وخلافاً لما توقَّعوه، بقيت الجذوة مشتعلة تحت الرماد، وعندما استيقظ العالم الإسلامي بعد الضربات الموجعة على أيدي جلاديه، ومع فشل الأيديولوجيات المستوردة[2] في تحقيق النهضة المرجوة، على أيدي أتاتورك في تركيا وباقي البلاد التي سارت على خطاه وقف لها الغرب مرة أخرى بالمرصاد، يرقبها، ويتجسس عليها، ويثير الأكاذيب حولها، كل ذلك بدافع العداء الكامن في الصدور: من ذلك ماكتبة الدكتور ماكولي - وهو أستاذ بجامعة لندن - عن الصحوة الإسلامية ليثير الذعر ويذكِّر قومه بوقائع التاريخ، فقال (إن أوروبا عانت من الإسلام مرتين :

المرة الأولى خلال القرن السابع عندما وصل المسلمون في زحفهم إلى الأندلس، والمرة الثانية في القرن السابع عشر عندما غزى المسلمون أوروبا للمرة الثانية واكتسحت قواتهم البلقان وهنغاريا وتوقفت على أبواب فيينا (يقصد العثمانيين) .

ويعتقد ماكولي أن الزحف الإسلامي الثالث قد بدأ محذراً الدول الغربية والاتحاد السوفييتي منها (لأن هذه الصحوة لو استمرت فإنها ستكون خطراً كبيراً لا على الاتحاد السوفيتي فحسب، بل على أوروبا، وسوف يمتد تأثيرها إلى أمريكا وإلى جميع بقاع العالم)[3]

ويرى الفريق سعد الدين الشاذلي - بحكم خبرته العسكرية وثقافته الواسعة

---

(1) يُنظر كتابنا (السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية) ص١٩٩ / ٢٠٠ - ط دار الدعوة إسكندرية ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

(2) يرجع فشل التطبيق إلى أنها نبتت في جو حضاري غربي، فلما وضعت بذورها في غير أرضها لم تثمر الثمرة المرجوة، ولن تتحقق نهضة مثمرة في العالم الإسلامي إلا إذا انبعثت من تراثه الإسلامي، وكانت تواصلاً للإبداع الحضاري الذي أبدعه علماء الأمة طوال القرون .

(3) ص٣٠٥ / ٣٠٦ من كتاب (الحرب الصليبية الثامنة) جـ١ للفريق سعد الدين الشاذلي ، ط«عيون المقالات» الدار البيضاء ١٩٩١م .

واطّلاعه على مجريات الأمور عن كثب - أن حرب العراق الأخيرة التي بدأت بهبوط القوات الأمريكية في الأراضي المقدسة يوم ٨ أغسطس ١٩٩٠م - هي بداية الحملة الصليبية الثامنة [١]

وأهدافها الاستراتيجية تنحصر إجمالاً في :

١ - تجزئة الوطن العربي .

٢ - ضرب الصحوة الإسلامية [٢]

* * *

---

(١) نفسه ص ٢٨٩ .

(٢) نفسه ص٣٠٢ ، ص٣٠٥ .

[مسخ الشخصية الأصلية هو الهدف البعيد للتعليم التبشيري]

كان سلاح التبشير مغلفاً بالتعليم هو أحد الأسلحة القديمة التي استخدمها الاستعمار الأمريكي بدهاء كلابس القفاز الذي يبغي به قتل خصمه فلا تظهر بصمات يديه على عنق الضحية . وكان يتظاهر بأنه أتى إلى الشرق لأغراض إنسانية كالتعليم والعلاج بينما كان يضع في النفوس والقلوب السم الزعاف مستهدفاً مسخ الشخصية الأصلية، ومتبنياً فكرة (القومية العربية) والترويج لها بطعن الخلافة العثمانية، وتنشئة الكوادر التي ستتولى القيادة السياسية وفق القيم الغربية، والزعم بتخليص أرض الإنجيل مما سمّوه (بالتخلف الإسلامي) !

ولكنهم عجزوا عن تحقيق أهدافهم مع اليهود ـ كما سيأتي ـ لأن اليهود كان لهم موقف آخر معاند لحملات التبشير والتنصير لاستمساكهم بالعهد القديم، ولم يرحّبوا بمقولة تخليصهم من (التخلف) اليهودي !، وحافظوا على هويتهم.

وكان من المعروف عن الاستعمار الأوروبي لاسيما الإنجليزي والفرنسي استخدامه السياسي للتبشير في مجالات التعليم والطب والتظاهر بالخير، ولدينا من المعلومات الكثير عنها، ولكن الاستعمار الأمريكي كان له دوره أيضاً في هذا المجال ويدفعنا إلى المزيد من معرفته والتوعية بأخطاره .

ولا نريد تقليب صفحات التاريخ التي تحزن النفس وتوجع القلب، ولكن نريد فقط معرفة أحد أسباب ما نعانيه من تغلغل ثقافة الغرب في أحشائنا، وفتنتها لعده أجيال مضت، وقد قدّم لنا مؤلف (الحملة الأمريكية ـ مستعربون وسفراء رحّالة) معلومات غزيرة عن تاريخ التبشير المغلف بالتعليم في الشرق، وكيف بدأ دينياً ثم استخدم لأغراض سياسية وهدفه (تمرير خلاصة القيم الغربية إلى العالم العربي)[1]، وذلك بسبب صعوبة تحويل المسلمين عن دينهم، أو إقناع نصارى الشرق بمذهب المبشرين الوافدين .

---

(١) ص٨٠ من كتاب (الحملة الامريكية ـ مستعربون وسفراء ورحّالة) تاليف روبرت كابلان ـ ترجمة محمد الخولي . كتاب (الهلال) بمصر محرم ١٤١٧هـ ـ يونيو ١٩٩٦م .

وقصة التعليم بالمدارس التبشيرية والجامعات الأمريكية قصة طويلة الفصول، سنقتصر على فصلين منها:

أحدهما: لبيان مدى غفلتنا عن حقيقته ومراميه .

والثاني: عن آثاره في مسخ شخصيتنا وتحطيم هويتنا الأصلية، وقد وضع البذور الأولى لتحقيق العولمة .

الأول:

ترعرع جيلنا في أعقاب انحسار موجة الاستعمار القديم، وكانت مصر قد أعلنت عن بكرة أبيها ـ عقب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦ ـ رغبتها في التحرر من الاستعمار البريطاني ـ وكان شغل قادتنا ومثقفينا وجماهير شعبنا كيفية التحرر منه بالجهاد وبذل المهج والأرواح وبالكتابة والتوعية تاريخاً وواقعاً، وكان الشغل الشاغل لأدبائنا وشعرائنا وعلمائنا . . وكذلك فعلت باقي شعوب المنطقة العربية والبلاد الإسلامية مع الاستعمار الغربي، كسوريا والجزائر والمغرب وتونس، ولم نكن نعلم أن هناك استعماراً آخر ينسج خيوطه من وراء . . وراء، بهدوء وصمت، متخفياً وراء تصريحات وشعارات رنانة عن استقلال الشعوب وحريتها وكان الرئيس الأمريكي ولسون قد نوَّمنا مغناطيسياً بشعارات عن (إحساس أمريكا بالإنسانية والعدل)[1] وبرر الاشتراك في الحرب العالمية الأولى ضد الألمان (بصيانة مبادئ السلام والعدل في حياة العالم)[2]

وقال: (ومن أجل حقوق وحريات الأمم الصغيرة. . ، فقدحان أن تكون أمريكا مميزة ببذل دمها وعظمتها من أجل المبادئ التي منحتها الميلاد والسعادة، والسلام النفيس الذي تصونه وليساعدها الرب، فهي لا تستطيع أن تفعل غير ذلك الواجب)[3]

وكنّا كمن يشاهد تمثيلية متقنة كتبها مؤلف قدير ومثلها ساسة وكتاب وصحفيون أخذوا يهللون لمنقذ الشعوب من الاستعمار، فتعلقت الشعوب بأذيال أمريكا ظنّاً

---

(١) والتر أ. مكدوجال: أرض الميعاد والدولة الصليبية أمريكا في مواجهة العالم منذسنة١٧٧٦ ص١٩٣ ترجمة رضا هلال ط دار الشروق ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .

(٢ ـ ٣) نفس المصدر ص١٩٦ ـ ١٩٧ .

أنها تمثل العالم الجديد التي سيفتح الأبواب لحياة حرة كريمة .

وربما لم يتنبه العالم الإسلامي إلى الحقائق المرَّة إلا بعد نكبة فلسطين، ثم كارثة حرب الخليج عام ١٩٩١م، وإفصاح قادة أمريكا عن (النظام العالمي الجديد) وبعده (العولمة)، عندئذ تنبَّهنا من غفلتنا، وأخذنا نستطلع الخبر .

هل انبثق (النظام العالمي الجديد) فجأة عقب انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي، أم أنه الطور الأخير من أطوار تاريخية سبقته بمراحل بحيث مرَّ المشروع الأمريكي بالتجارب تلو التجارب، وخضع لتعديلات وتغييرات فرضه واقع العالم السياسي والاقتصادي والثقافي والعسكري ؟

الثاني : ثمرة التعليم التبشيري : مسخ الشخصية الأصلية :

لقد ظل التعليم وسيلة فعَّالة للتبشير لصياغة الأفراد وفق التصوُّر الديني المسيحي ومسخ الشخصية الأصلية بتلقينها ثقافة هجين لا تمت لتراثها بصلة فتجعلها قابلة للانقياد بلا تردد، لأنها انسلخت من مقوماتها وفي مقدماتها: العقيدة الصحيحة واللغة العربية .

ودليل نجاح التبشير في حقل التعليم أن (نسبة متزايدة من الطلاب المسلمين ممن أصبحوا في الشرق الأوسط في مواقع القيادة في مجتمعاتهم)[١]

ونضيف دليلاً آخر، وهو نشاطهم الملاحظ الآن في الترويج (للعولة) وتحقيق أهدافها !

واستخدم الأمريكان التعليم، لأن التعليم الغربي أكثر الأسلحة مضاءً وفاعلية، وكان روبرت كابلان صريحاً في الإعتراف بأن المبشِّرين يرون في حركتهم حملة صليبية جديدة (حملة من شانها في نهاية المطاف أن تخلِّص أرض الإنجيل من التخلُّف الإسلامي)[٢]

ونشط المبشرون الأمريكيون مدفوعين بتفاؤل عظيم لتحويل المنطقة إلى الإنجيلية، بمعنى تحويلهم إلى القيم البروتستانتية الأمريكية، وبدأت في تطوير المؤسسات الحيوية في سوريا الكبرى فكانت أول مطبعة جاؤا بها إلى بيروت من مالطة عام ١٨٣٤م .

---

(١) الحملة الأمريكية ص٨٧ . (٢) نفسه ص٤٤ .

كان الغرض إذن (تحضيرنا) بترك ديننا!

وفتحت الجامعة الأمريكية بالقاهرة أبوابها عام ١٩٢٠م ورأسها (تشارلس واطسن الذي ترجع جذوره في التبشير البروتستانتي بمصر إلى عام ١٨٦١م .. وأصبحت بسرعة محور النشاط التبشيري الأمريكي في مصر تماماً كما كانت كذلك الجامعة الأمريكية في سوريا الكبرى)[1]

وبينما نجح التعليم كأداة تبشير وسط المسلمين، فشل فشلاً ذريعاً أمام اليهود، فقد رفضوا الدخول في محادثات مع العرب، لأنهم لم يقتنعوا بنص من الإنجيل قدّمه إليهم المبشرون، أي (لا بالقوة ولا بالسطوة ولكن بروح من عندي هكذا يقول رب الجنود)[2]

واستخدم اليهود القوة، لأنهم كانوا يقرءون (العهد القديم بعيون مختلفة عن عيون مبشّر بروتستانتي) - أي يحرصون حرصاً تاماً على المحافظة على عقائدهم .

وترك المبشرون اليهود وشأنهم، ولم يعاودوا الكرة معهم لإنقاذهم من (التخلف اليهودي)!

وتأكيداً لهذا الموقف الصامد يروي الأستاذ محمد علي علوي «رحمه الله تعالى» واقعة لها مغزاها ودالة على مدى استمساك اليهود بمقومات شخصيتهم حتى حققوا هدفهم في إنشاء دولة دينية، فقد سمع بنفسه من إذاعة إسرائيل في آخر نوفمبر سنة١٩٥٣م أن المدارس العبرية التي افتتحها اليهود في الولايات المتحدة بلغت إلى ذلك التاريخ ١٦٨ مدرسة، ومازالت الصهيونية دائبة على نشر اللغة العبرية في قلب أمريكا.. ولا يسمح اليهود بإنشاء أية مدرسة أجنبية ولو كانت علمانية، غير تبشيرية!

ثم يختم الرواية بالتعليق المناسب قائلاً :

(هذا ما تصنعه إسرائيل بجوارنا، وهو يدل على أنها تعمل بروح وطنية وعنصرية ودينية، ونحن نفتح بلادنا لسموم التبشير تضعفنا في ديننا ودنيانا وتقاليدنا..)[3]

---

(١) نفسه ص١٧١ . (٢) نفسه ص١٧٥ .

(٣) ص١٨٠ من كتابة (فلسطين والضمير الإنساني) كتاب الهلال مارس ١٩٦٤م .

ولكن مع الأسف لم ننصت لصوت العقل ـ فكان لزاماً علينا تجرُّع الحصاد المُرّ !

وظل التعليم هو النشاط الأساسي للتبشير فى مصر، حيث تولى المبشرون تعليم ١٤٠٠٠ تلميذ فى مائتى مدرسة وافتتحوا كلية البنات بالقاهرة عام ١٩١٠م [١]

فهل تعي الأسـر المسلمة ما يدور حـولها وتكف عن إرسال فلذات أكـبادها إلى دهاقنة التبشير ؟

وتكاتف المبـشرون فى أداء رسالـتهم مع اختـلاف جنسيـاتهم فقـد كان المبـشر صمـوئيل زويمر ـ مدعّما من الكنيـسة الإصلاحـية الهولندية ـ ولـم يكن كغـيره من زملائه الأمريكيين ـ خريج إحدى جامعات القـمة فى أمريكا، بل مجرد ابن مهاجر هولندى متجول لحساب الكنيسة الهولندية .

واستمرت جولاته على مدى خـمسين عاماً ـ هو وزميله كانتن منذ سنة ١٨٨٩ م وحتى نشوب الحرب العـالمية الثانية، متخذين بنص من الاصـحاح الأول من كتاب (أشعيـا) دليلاً لهما، ومـضمون هذا النص (كل بقعـة تطؤها قدماك سوف نعـطيها لك)[٢]

ويتضح البعد الديني والمحرّك العقيدى فى شخص بعض رؤساء أمريكا منذ وقت مبكر، ومـنهم الرئيس الأمريكى ويلسـون سنة١٩١٣م وهو ابن قـسيس مسـيحى، وتبعه فى العـصر الحديث أمثال كارتر وريجـان وبوش الذين أعلنوا بلا مواربة أنهم يتدينون بتأييدهم لإسرائيل .[٣]

* * *

(١) نفسه ص ٨٨ .

(٢) نفسه ص ٩٠/٩١ .

(٣) نفسه ص ٩٢ .

(٧)
التفرقة العنصرية

إن الناظر لحضــارة العصر، والبــاحث في روافدها الثقــافية وتاريخــها وواقعــها المعاصــر، يصطدم بظاهرة التــفرقة العنـصرية لأنها من مــلامحــها البــارزة ـ كالمرأة الدميــمة تعجــز عن ستر قــبح وجههــا حتى لوغطته بالمســاحيق وأدوات التجــميل المصطنعة، فإذا نثــرت على وجهها قطرات من الماء لأزال عنه الصباغــة وظهر سافراً يثير في النفس النفور والاشمئزاز!

وللقارئ نبذة عن تاريخ العنصرية الغربية وملامحها المعاصرة:

يؤرخ الدكــتور إبراهيم مــدكور لهذه الظــاهرة فيذكــر أنها ترجع إلى الــيونان إذ اعتــمدتها فلاســفتهم ـ وعلى رأســهم أرسطو ـ بالمقولة المشهــورة «كل ما وراء أثينا بربر» (١)

وجاء بوصية أرسطو لتلميذه الاسكندر «إذا وجدت يونانيين خلفي فلا تستعمرهم إذ هم أحرار، أما العبــيد والعتقاء والمهجّنين، فإنك يجــب أن تعاملهم بقسوة، وأن تستعمر بلادهم» (٢)

وخلف من بعد اليونان الرومان الذين كانت تأخذهم العــزة بعنصريتهم، فأقاموا عليها تفرقة (في تشريعهم وقوانينهم بين الرومان وغير الرومان) .. ثم قاسى زنوج أمريكا في العصر الحديث من النظرة العنصرية التي كــانت تعدها الكنيسة أمراً واقعاً لا مفرّمنه (ولم يخفف من وقعها أخــيراً إلا «قانون الحقوق المدنية» الذي ساوى بين البــيض والسود، ولايزال لهــذا الأمــر رواسب وذيول في دولة عظمى لهــا نظمهــا وشرائعها) (٣)

وفي دراسة مقارنة خاطفة للقيم الأخلاقية الإسلامية، والنظرة الدونية العنصرية، يقرر الدكتور حسين مؤنس أنه { في تاريخ إفــريقية التي توصف خطأ بالسوداء وكان (من رأى الدكتور مؤنس أنها القارة المسلمــة ـ قامت قبل الإستعمار الأوروبي دول

---

(١) في الفكر الإسلامي د/ إبراهيم مدكور ص ١٧٤ / ١٧٥ .

(٢) ص ٣٧١ / ٣٧٢ من كتاب (الأخلاق والسياسة في الفكر الإســلامي والليبرالي والماركسي) للدكتور ممدوح العربي، ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٢م .

(٣) في الفكر الإسلامي د / مدكور ص ١٧٥ .

إسلامية كبرى ذات حضارات ونظم لا تقل عن معاصراتها في شتى نواحي العالم الإسلامي وأهمها دول غانه ومالي وصنغى . بل شهد رحّالة المسلمين الذين زاروا هذه الدول وكتبوا عنها، مثل ابن فاطمة وأحمد باب التمبكتي وابن بطوطه، بأن أهل هذه البلاد يمتازون بخلق متين وأمانة وصدق وصفاء نيّة وبُعد عن الخداع) .

ويلفت نظرنا الدكتور حسين مؤنس لهذه الأخلاق، ويرى أنه (ربما كانت هذه هي نقط الضعف التي مكّنت للأوروبيين من غزو بلاد القارة الإفريقية واستعمارها وإذلال أهلها واسترقاقهم والتجارة فيهم هذا العمر الطويل)[1] .

ومع الآراء السيئة التي نشرها الأوروبيون عن الجنس الأسود أباحوا لأنفسهم إبادة السود في بعض الأقاليم (مثل جنوب إفريقية وزمبابوي التي سُمّيت باسم استعماري من عُتاة القاتلين باستذلال الشعوب الضعيفة وهو سيسيل رودس)[2] .

وبقيت الرواسب العنصرية في أعماق النفس الغربية ثقافياً وسياسياً، فقد جاء في تعريف كلمة «أسود» بقاموس أكسفورد للغة الإنجليزية [مُلَطّخ للغاية بالقذارة، ملوث، قذر . . أهدافه سوداء أو مميتة، شريرة، ينتمي إلى الموت، وينطوي عليه، مميت، مهلك، مسبب المكوارث والنحس . . . . فاسد فاسق أثيم مرعب شرير . . يدل على الخزي والاستهجان والجرم][3]

وفي العلاقات السياسية ظلت النظرة العنصرية تحكم سلوك قادة الغرب، أمثال (كيرزون وبلفور وتشرشل . . ولا يختلفون عن لورد كرومر، فيرون الشعوب مقسّمة بصورة طبيعية إلى «أجناس حاكمة» و«أجناس محكومة» ويؤمنون بأن البريطانيين من بين النوع الأول وأن العرب من بين النوع الثاني)[4]

---

(١) ص١٩ من كتاب (الحضارة) د/ حسين مؤنس ، سلسلة (عالم المعرفة) ـ الكويت محرم / صفر ١٣٩٨ هـ ـ يناير ١٩٧٨م .

(٢) نفسه .

(٣) ص١٠٨ من كتاب (الغرب والعالم) تأليف كافين رايل جـ٢ ترجمة د/ عبدالوهاب المسيري ود/ هدى عبدالسميع حجازي مراجعة د/ فؤاد ذكريا ، عالم المعرفة بالكويت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

(٤) ص١٤٨ من كتاب (العرب) لمؤلفه بيتر مانسفيلد ترجمة انسجام غوده ـ منى فرغلي ـ د/ السيد عمر الهيئة المصرية للإعلام ١٩٩٥م .

ونفس التعصب العنصري اعتنقه الرئيس الأمريكي ويلسون (لذلك هتف لضم الفلبين وبورتديكو : إنهم أطفال ونحن رجال في تلك الشئون العميقة للحكم والعدل)(١)

وكان يغلّف ذلك بشعارات قائلاً في إحدى خطبه (وليمنحنا الرب فخر ذلك اليوم الذي يتحقق فيه التعامل الصريح والسلام المستقر والتوافق والتعاون بحيث يكون في متناول اليد) (٢)

ووصف الحرب العالمية الأولى التي قادها بأنها (حملة صليبية لجعل العالم سالماً من أجل الديمقراطية)(٣)

ويبدو أن هذا التمييز العنصري جعل العقل الغربي المعاصر أيضاً (لا يتصور أن هناك طريقاً غير طريقه، ولا أساليب سوى أساليبه، ولم تستطع الحضارة الغربية الانفتاح على غيرها من الحضارات، طوال تاريخها، وأظهرت دائماً استعدادها للاستغناء عن ما عند الآخر، وكان الغير عند الرومان هو البرابرة، وعند الفرنجة هم الشياطين، ولم يستطع العقل الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين أن يسبغ على سكان المستعمرات سوى وصف «الأهالي»)(٤)

وانعكست النظرة العنصرية بطبيعة الحال على إسرائيل ـ نموذج الديمقراطية الغربية في الشرق ـ (فإنه طالما بقيت إسرائيل دولة صهيونية ـ يعطى فيها قانون العودة، على سبيل المثال، حق المواطنة للمهاجرين اليهود فقط ـ فإن العرب سيظلون مواطنين من الدرجة الثانية . .)(٥)

وزاد الطين بلة ظهور الاتجاه العدائي المتطرف نحو العرب ـ أصحاب البلاد الأصليين ـ من أمثال (كاهانا) « الذي تنضح كلماته بالحقد الدفين، ويفضح بها

---

(١) والتر مكدوجال : أرض الميعاد والدولة الصليبية ـ أمريكا في مواجهة العالم منذ سنة١٧٧٦ ترجمة رضا هلال ، ط دار الشروق ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠ م .

(٢ ـ ٣) نفسه ص١٨٠ .

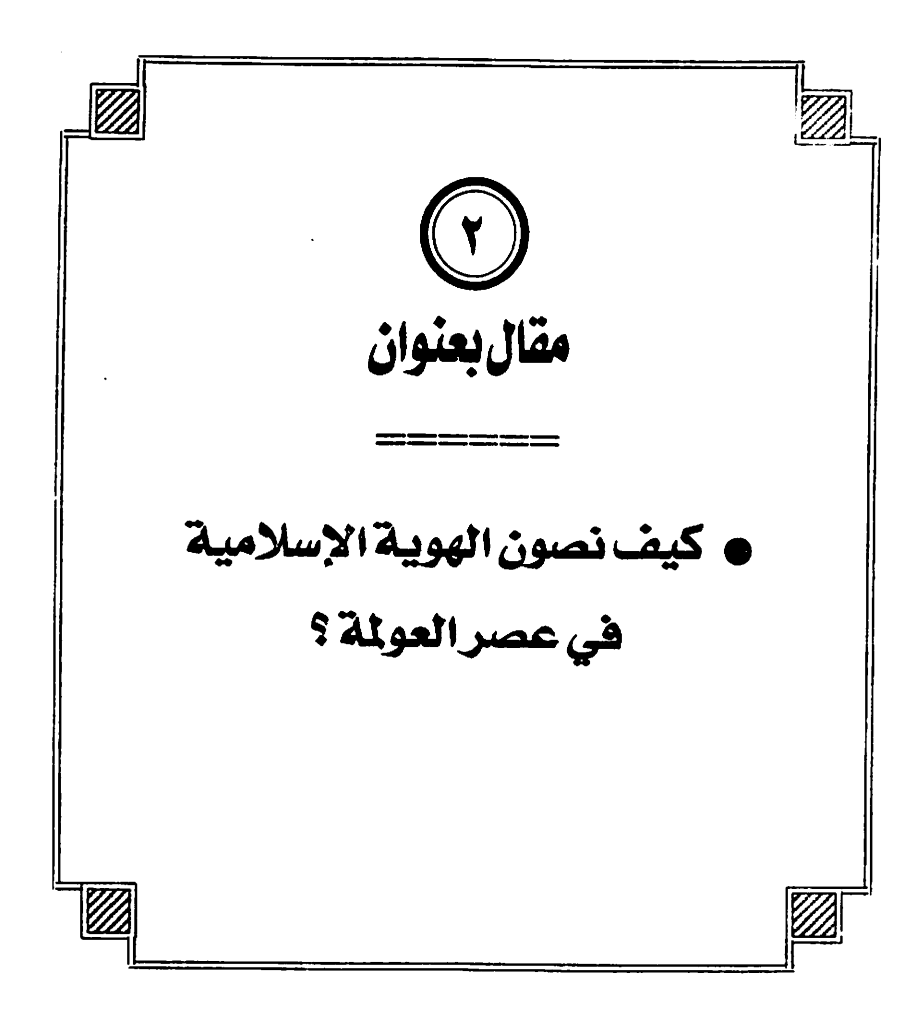
(٤) مقال بعنوان (لي كوان يو والنموذج الأسيوي) بقلم مصطفي نبيل مجلة الهلال ـ فبراير ١٩٩٦م ص٥٦ .

(٥) العرب ، مانسفيلد ص٤١٥ .

خفايا نفوس بني قومه جميعاً - قال: (العرب سرطان، سرطان، سرطان وسطنا . ولكن لا يوجد رجل واحد مستعد لأن يقف ويقولها . . إنني أقول لكم ما يفكر فيه كل منكم في أعماق قلبه : ليس هناك سوى حل واحد، ولا حل آخر، لا حل جزئي: أيها العرب اخرجوا ! اخرجوا ولا تسألوني كيف . . . دعوني أكون وزيراً للدفاع شهرين ولن تجدوا صرصاراً واحداً هنا، إنني أعدكم بأرض إسرائيل نظيفة، اعطوني السلطة لكي أتعامل معهم)[1]

* * *

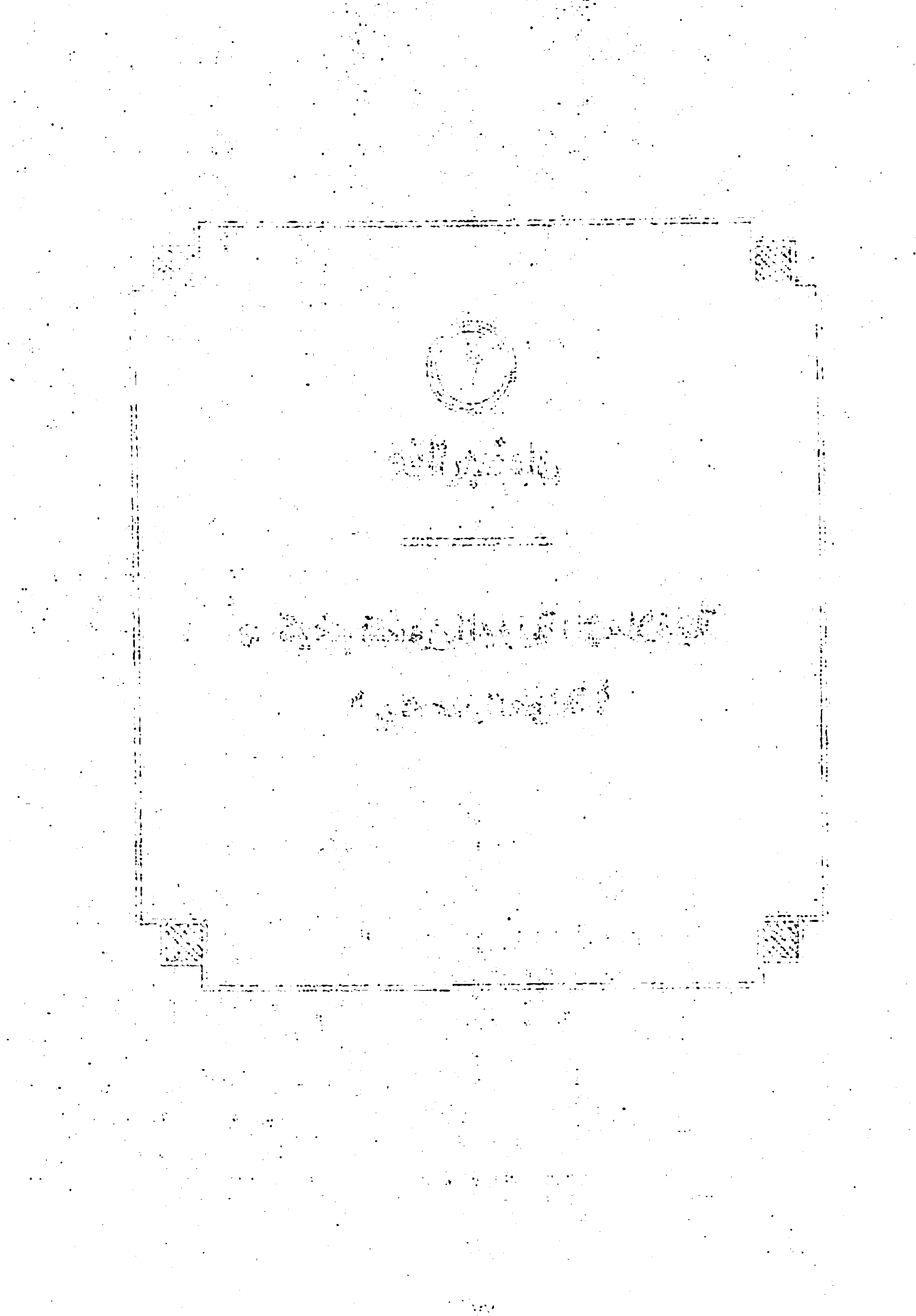
(١) ص٢٢٧ من كتاب (الإسلام وخرافة المواجهة)، فريد هاليداي ترجمة محمد مستجير مكتبة مدبولي سنة ١٩٩٧م.



٢

مقال بعنوان

● كيف نصون الهوية الإسلامية في عصر العولمة ؟



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد .

[كيف نصون الهوية الثقافية الإسلامية في عصر العولمة ..؟]

شَغَلَت (العولة) - وهي الطور الأخير للنـظام العالمي الجديد المنبثق من حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م - جمهرة الباحـثين وعلماء السياسة والاقتصاد والمحللين ورجال الصحافة، وعقدت لها الندوات والمؤتمرات لبحث طبيعتها وأهدافها، والكل مجمعون على وصلها بفلسفة (فوكوياما) بكتابة الشهير [نهاية التاريخ] .

وعندما تنازل عن أفكاره بكتابه الجـديد (الانفراط العظيم)، تلقف الفكرة كاتب آخر يدعى (فريدمان)، أكثر حماسـا من سلفه، وزاد عليه بطوافه بالعالم للترويج للعولة، والحث على الالتـحاق بقطارها محذراً من أعـراض التخلف عن الركب المتقدم لمن فاته القطار !

ولعل أصوب المواقف إزاء هذه الهجمة الجديدة التى تتعرض لها أمة الإسلام، ألا نغلق المنافذ تماماً لحـماية الذات الثقافية والحضـارية، بل ينبغى أن نعمل على تحصين الذات واستثمار الذخائر الإيمانية المستكنة فى الصدور ونرى أن أول ما نوصى به هو الحرص على ألا يدفعنا الواقع الألـيم لأمتنا العربية والإسلاميـة إلى حافة التشاؤم أو اليأس - فهـو واقع مؤقت قياساً على ما مر بها من نكـبات فى حياتها الممتدة طيلة أربعة عشر قرناً من الحروب الصليبية والغزو التتارى والاستعمار الغربى الحديث، بل ونغلب بواعث الأمل فى مستقبل أفـضل بالحث على استثمار عوامل المقاومة والتصدى، وهى ذاتها المتمثلة فى المحافظة على هوية الأمة أيضاً، وقد دأبت عند مقابلة الأخطار - طيلة تاريخها - استخراج مكنون الذخائر الإيمانية من القلوب

بواسطة علمائها لتتدبر أسباب الهزائم فى ضوء السنن الإلهية بالكتاب الكريم، ولتسترشد بتعاليم الرسول ﷺ لأن أحد أسباب الهزائم هى مخالفة تعاليمه والتفريط فى اتباع سنته، وكان الدرس الأول ما حدث فى موقعة أحد، والأخير هزيمة ١٩٦٧م (ثم تحقق النصر بارتفاع هتافات جند مصر فى معركة أكتوبر ٧٣ بشعار (الله أكبر) !)

إن هذه اللمحة هى نقطة البدء فى معرفة العلاقة الثابتة بين قوة الإيمان والنصر فى موقعة (بدر) وما تلاها، وأسباب الهزائم فى النكوص على الأعقاب. فالإيمان هو الذى حرك الأمة منذ فجرتاريخها ولازال قادراً لوأحسن استثماره على صد الغزوات بل تحول الأمة لمكان الصدارة من جديدا يقول الدكتور جمال حمدان مبدياً حيرته لهذا التحول الفريد من نوعه (لاشك أن مما يدعو إلى الحيره والتساؤل حقاً أن تستطيع قوى الصحراء الطاردة - قاعدة أرضية شبه خاوية وموارد طبيعية شحيحة وانتاج اقتصادى متواضع وكثافة سكانية هزيلة - أن تقهر وتخضع قوى البر والبحر التقليدية العتيدة فارس شرقاً وروما غرباً وفى مدى زمنى يحسب بالسنين أكثر مما يحسب بالعقود . معادلة صعبة (٢)

وسنمضى فى خطوات البحث، فنعرف أولابالعولمة وموقفنا منها، والعراقيل التى تبطئ من سيرها، ثم بيان بعض مقومات المحافظة على الهوية .

وأخيراً نعرض بعض التوصيات :

التعريفات بالعولمة وموقفنا منها :

تفاوتت الآراء بين التهوين من شأنها أو الغلو فى وصف سطوتها، وكأنها وحش كاسر يستحيل مواجهته، وربما كانت الدراسة الموضوعية التى تسعى للتعريف بها وباهدافهـا قد أصابت وصفها بأنها (قطبية فى العلاقات الدولية، وضد الهويات الثقافية أو الدينية لكل الحضارات الأخرى) (٣) ولتحقيق هذه الغاية توظف التقنية الإعلامية - وخاصة التلفزيون والإلكترونات والإعلام السريع لتؤدى الدور الحاسم فى تكوين الراى العام، وتصدير الثقافة الجاهزة التى تغزو العالم كله، مدمرة ثقافاتة

الخاصة (٢) وتنفيذ (العولمة) من أبواب الاقتصاد والثقافة والقيم، مما يستدعى ضرورة المقاومه فى شتى هذه الأبواب للمحافظة على الهوية الخاصة للمجتمعات، لذلك أصبح الواجب الملقى على كاهل الأمة الإسلامية بكافة فئاتها أخذ الأمر مأخذ الجد.

وعلى أية حال، فإن الضجة الإعلامية المثارة حول العولمة، لا تخرجنا قيد أُنملة عن الاعتزاز بالهوية الإسلامية، لأننا نعرف أنها ـ أى العولمة التى حددها فريد مان بالأمركة ـ فارغة المضمون ـ كفلسفة عملية ـ ولا تقوى على الصمود أمام النقد الفلسفى ـ ويظهر عجزها الشديد عن إقامة حضارة تتوافق مع المتطلبات الإنسانية بشتى نوازعها واحتياجاتها الجسدية والروحية وفق قيم ثابتة، كما لا تملك من الخبرة التاريخية ما تقدمة كحلول لمشاكل الإنسانية المتفاقمة. يقول مؤلف كتاب (اليابان لم تقل لا):ـ ونظراً لأن التاريخ الأمريكى قصيرالمدى ولا يتعدى قروناً قليلة، لم يخض الأمريكيون قط تجربة التحول من مرحلة تاريخية رئيسية إلى أخرى (٤)

تجليات العولمة :

وللعولمة تجليات كثيرة (٥)، ولكن أكثرها خطورة هى ممارسة مفهوم (العنف الثقافى) التى تمارسه إحدى القوى الكبرى على سائر الثقافات الأخرى، بالآليات الخارجية والمال والاتصالات والاستثمار. . . وبالتحالف مع البنية الداخلية المسيطرة (باحتواء الطبقات الداخلية المستفيدة مما يخلق نوعاً من التحالف بين الطبقات الحاكمة والطبقات والفئات الأقل منها مثل رجال الأعمال والمثقفين وعديد من الكوادر من التكنوقراط) (٦)

ويتضح مفهوم (العنف الثقافى) بتعريفه بأنه (فعل اغتصاب ثقافى وعدوان رمزى على سائر الثقافات) .

والعولمة وفق هذا الدور المخرب ليست جديدة أو طارئة على الدول النامية، بل هى (الترويج التاريخى لتجربة مريرة من السيطرة بدأت منذ انطلاق عمليات الغزو الاستعمارى منذ قرون، وحققت نجاحات كبيرة فى إلحاق التصفية والمسخ بثقافات نوبية عديدة، وبخاصة فى أفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية)(٧)

وفى ضوء ذلك كله فان عالم المستقبل سيصبح فى ظل العولمة لو نجحت فى مسارها محكـوماً لا من الأطر الوطنيـة ـ بل من خلال المؤسسات الدولية، بـل إن القادة السياسيين ـ فى رأى د / بطرس غالي ـ لم يعودوا يمتلكون اكثر من مجالات السيادة الفعلية التى تمكنهم من اتخاذ القرار (٨)

ويُخشى تحـول (العولمة) إلى مـا هو أكثر تدمـيراً للمجـتمعـات بتحـويلها إلى (عولمات) عديدة { أى فى مجال المعلومات والمخـدرات والأوبئة والبيئة . . ثم تأخذ فى التعاظم فى المجالات المختلفة بسرعة متباينة . . بما فى ذلك الجريمة، أى الجرائم العابرة للحدود } (٩)

العولمة وأبواق الحرب النفسية :

ونوصى بالاحتراس من الاسـتجابة للحرب النفـسية التى تصور العـولمة وكأنها (ديانة جديدة) كما يريـدها (توماس فريد مان)، الذى يخير العالم ـ كـما بينا آنفاً ـ بين الإحسـاس بالانتماء، وبين السعى نحـو التقدم فى ظل العولمة (فـالانخراط فى مسارات العـولمة والسوق العالمية، بأى ثمن، هو الطريق الوحيـد للتقدم والازدهار، بينما الاحـتفاظ بالهوية "أو الانتـماء للجذور الوطنية والدينيـة" هو طريق التخلف والاندثار) (١٠)

ويحـاول فريدمـان توظيف فكرته سيـاسيـاً فى أرض الواقع فيـصور اسـرائيل (الملتحفة بالعولمة المنطلقة القوية . . رغم صغر حـجمها ـ أن تتغلب وتنتصر انتصاراً نهائيـاً فى ظل التسوية، على العرب جـميعاً وتحـديداً على مصر «شجـرة الزيتون» المترددة حيال مخاطر العولمة) (١١)

وتبدو هذه المحاولة كاحـدى وسائل الحرب النفسية التى يهـدفون بها إلى تسليم الخصم قبل النزال بتحطيم روحه المعنوية وبث اليأس فى نفسه .

وقد اعتمدت حملتها الإعلامية بإشاعة فكرتها على عاملين :

احدهما(تجنيد مفكرين وكتاب فى مختلف البلاد، يُنظِّرون ويروجون لأفكار العولمة والكونية ويؤكدون أن الشعور بالولاء لأمة أو وطن أصبح من مخلفات الماضى)(١٢)

الثاني: هشاشة التكوين الديني والثقافي الإسلامي لدى بعض المثقفين بسبب روح التغريب السارية في ثقافتهم، ولكن مما يبعث على الاطمئنان أمام هذا الغزو الجديد لثقافتنا أن(عامة المسلمين فيهم حصانة روحية وإيمان قوى يجعلهم يميزون الخبيث من الطيب. . . فلا خطر عليهم، إنما الخطر على الذين لا يؤمنون إيماناً صادقاً، وفي نفوسهم اضطراب واتجاه إلى تقليد الغربيين في كل شئ، وتقديس ما عندهم، سواء أكان صحيحاً أم باطلاً(١٣)

أضف إلى ذلك أن هناك عراقيل أو معوقات تبطئ سيرها :

عراقيل أمام العولمة:

لم ترضخ شعوب العالم الثالث بعد لنظام (العولمة)، وأخذت تقاومه بالتجمعات الاقتصادية لتصد الجنسيات المتعددة (١٤)

يقول الدكتور محمد محمود ربيع أستاذ العلوم السياسية (يجتاح العالم غضب مكتوم من ممارسات قوى عولمة القطب الواحد انفجر مؤخراً في سياتل بالولايات المتحدة (ديسمبر سنه ١٩٩٩ م) ثم في دافوس بسويسرا (فبراير ٢٠٠٠ م)، وتنتظر ثلاثة آلاف منظمة شعبية على مستوى العالم من مناسبات قادمة لإعلان تضامنها مع انتفاضة سياتل، وفتح جبهات صراع جديدة مع مفاهيم وسياسات العولمة)(١٥)

ومن رأيه أيضاً ان ما حدث لم يكن أول إدانة دولية للعولمة، فقد سبق ان اتهمها مؤتمر الدول الـ١٥ بالقاهرة (مايو سنه ١٩٩٨ م) بالجشع وعدم العدالة، وتنبأ بالاختلالات التي ستنجم عن احتكار الأقلية الرأسمالية للمزايا الاقتصادية والسياسية على المستوى الكوكبي أ.

كما أخذت (العولمة) تصطدم في المجال السياسي بخصوصيات ـ ومثال ذلك في رأى الأستاذ محمد سيد أحمد ـ خصوصية العلاقة بين العرب وإسرائيل، وهي في جوهرها قضية وجود لا قضية حدود، ومن ثم أصبح من الصعب إزالة خصوصية الشرق الأوسط ليصبح جزءاً من حركة (العولمة) مادام النزاع قائماً وهو صورة مكررة

(لما كانت عليه الحروب الصليبية فى القرون الوسطى.. مع فارق واحد هو أن الغزاه فى المرة الأولى قد أتوا بصفتهم مسيحيين يتطلعون إلى استرداد أورشليم.. وفى المرة الثانية، بصفتهم يهوداً.. وفى المرتين، نشب صدام بين الإسلام والغرب - ولم تُحل قضية الحروب الصليبية إلا بفشل هذه الغزوات فى النهاية واستعادة العرب أرضهم بالكامل) (١٦)

مقومات المحافظة على الهوية والتصدى للعولمة :

إنها فى مجموعها تكون طرق الصمود للتغلب على أية تحديات، نجمعها كرءوس مسائل قابلة للتوظيف الفعال، وهى: عقيدة التوحيد - التطبيق العملى بواسطة الرسول ﷺ، وهو أسوة الأمة برمتها- العناية بتحقيق وحدة الأمة وعناصرها الثابتة، لا سيما اللغة العربية .

كذلك لا ننسى ان هذه المقومات جربت من قبل وأنقذتنا من الضياع، فقد تعرضت الأمة الإسلامية لغزوات مشابهة، ومحن متفاوتة الشدة، اقصاها فى القرن الأخير منذ نكبة إلغاء الخلافة: من احتلال عسكرى مدعم بأفتك الأسلحة، إلى اجتياح إلحادى ماركسى وسحق التفرد والهويات الثقافية للشعوب الخاضعة له، وبالذات سكان الجمهوريات الإسلامية، إلى تبشير صليبى، إلى فرض اللغة والثقافات على المستعمرات كما فعلت انجلترا وفرنسا .. وقد ارتدت هذه الموجات أمام المواقف الشجاعة لحركات المقاومة باستنادها إلى نفس المقومات .

وقبل العمل بالخطط التفصيلية للمحافظة على الهوية إزاء (العولمة)، نرى إحداث وعى إسلامى عام بواسطة تعاون أجهزة الإعلام بكافة الدول الإسلامية بأن مسئولية المحافظة على الهوية عنها مشتركة بين الأفراد والمجتمعات والدول بواسطة طريقتين:

الأول: التغيير الذاتى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ١١]

الثانى: الإعداد الذاتى ينصب على المجتمع والدولة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[الأنفال: ٦٠] (١٧)

ذلك بأن الإسلام - بإجماع أهل السنة والجماعة - قول وعمل، ويعلو بهذا الازدواج على فكرة (الثقافة) النظرية المجردة، فقد ورد فى صحيحى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال (الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة، أعلاها أو أرفعها أو أفضلها - على اختلاف الروايات - قول. لا إله إلاالله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) .

وتمتد شعب الإيمان فى شرايين المسلم - أو هكذا ينبغى أن تكون، وإذا عمل بها أصبحت كالسد المنيع الذى يستحيل اختراقه مهما فعلت جيوش العولمة، والخبرات التاريخية بل التجارب المعاصرة - خير شاهد، إذ بعد انفراط عقد وحدة الأمة - الخلافة - لجأ المسلمون بفطرتهم وغريزة الدفاع عن النفس إلى شُعب إيمانهم يلوذون بها، وها هو المشهد الماثل أمامنا فى التضحيات المتواصلة للأقليات الإسلامية فى العالم أمام محاولات الاستئصال، ففى الهند، وبلاد البلقان فى أوروبا (ومنها البوسنة والهرسك)، كذلك قاوم المسلمون فى الاتحاد السوفيتى الغزو الروسى الملحد

لقد بقى الإسلام فى الجمهوريات الأسيوية الإسلامية عاملاً حيوياً فى تماسك الشعوب هناك وظلت تحتفظ به فى قلبها وتربى عليه الأبناء والأحفاد بالرغم من الحرب الضروس، بل ظل المسلمون بمحافظتهم على دينهم يقاومون أيضاً محاولة تذويبهم فى الشعوب الأخرى.

يقول الدكتور/ بينجون الأستاذ بجامعة لندن المتخصص بأحوال مسلمى الاتحاد السوفيتى:

(إن الإسلام هو مصدر تماسك الجمهوريات الأسيوية الإسلامية فى مواجهة استيعاب الروس لهم. وأن المسلمين فى الاتحاد السوفيتى يتزايدون بمعدلات كبيرة جداً بالمقارنة بالأوروبين حتى أصبح هناك مسلم بين كل أربعة من المواطنين. . وقد فشلت تماماً محاولات صهر ودمج هذه العناصر. . والإسلام الآن يمثل عقبة أمام المخططات السوفيتية لأن المسلمين هناك يعتبرون رمزاً للتمايز والاختلاف عن القوميات الأوربية) (١٨)

وما المعارك الضارية الدائرة الآن في الشيشان ببسالة منقطعة النظير إلا دروساً لسائر مسلمى العالم .

وإذا شئنا التخصيص على أهم الروابط وأقواها فإننا نذكر منها:

أولاً: التوحيد:

وهو جوهر الإسلام ولبّه، وهو العلم الأكبر لهوية الشخصية الإسلامية . وقد أفاض علماؤنا بتحليل أنواعه الثلاثة ووثّقوه برباط محكم لكى يبقى التميّز قائماً فلا تختلط العقائد تحت شعار وحدة الأديان الباطل. فإن توحيد الألوهية يعنى إفراد الله تعالى بالعبادة، رجاءً وخوفاً ومحبةً - وهى من أعمال القلوب - والصلاة والزكاة والحج والجهاد ونحو ذلك - وهى أعمال الجوارح -، ولا يصح للإنسان أن يتوجه لغير الله تعالى بهذه الأعمال التى يقصد بها التقرّب إلى الله تعالى استسلاماً وإذعاناً وخضوعاً له وحده .

ويفهم توحيد الربوبية فى ضوء التيقّن بأن الله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء ومليكه، وهو تعالى وحده الخالق الرازق المحيى المميت المدبّر لجميع الأمور بتشريعه العادل .

أما توحيد الأسماء والصفات فيميّز الشخصية الإسلامية عن غيرها لأن المسلم يتميز بمعرفة أسماء وصفات الله تعالى بما اثبتة لنفسه من أسماء وصفات أثبتها له رسوله ﷺ .

وبعقيدة التوحيد تظهر أصالة أمة الإسلام وهويتها الخاصة التى لا تشاركها فيها أمة غيرها .

ثانياً: رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة في كل العصور:

إن المسلمين كافة مطالبون بالتأسي بالرسول ﷺ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾[الأحزاب: ٢١]، على مدى العصور كلها حتى قيام الساعة، وهو وحده الأسوة الحسنة حياً وميتاً، فلم تنقض سنته بموته، لأنهم مأمورن بطاعته طاعة مطلقة غير مقيدة بمكان أو زمان ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

وَالرَّسُولَ ﴾[آل عمران: ١٣٢] ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[الأنفال: ١] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: ٣١] .

ولا يتعارض ذلك مع تغيُّر الأزمنة والعصور، لأن الاقتداء به - ﷺ - يتصل بعقائد الإنسان المسلم وعباداته وسلوكياته كإنسان يحتاج إلى أسوة في طريق اجتيازه للحياة الدنيا (فالحوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحضارة الإنسانية، فالغرائز التي هي محور عمل الإنسان لم تزل باقية كما كانت بالرغم من أن مجال النشاط الإنساني قد اتسع، وصفات الإيثار والشرف والصدق والشجاعة المستحبة تنال من الاحترام اليوم ما كانت تناله منذ القدم) (١٨) .

وهو وحده - ﷺ - الذي ضرب المثل الأعلى في السلوك الإنساني في ضروبه كلها، وقدم الحلول الحاسمة لكافة ما يعترضنا من أزمات كأفراد ومجتمعات وأمة، وفي شتى العلاقات وكافة المواقف .

كذلك فإن اتخاذه - ﷺ - الأسوة، يعصم المسلمين من الافتتان بكل ناعق كغيرهم من الشعوب التي يراد لها اتباع رجال مصنوعين ومروّج لهم بأجهزة الإعلام لتلقي بشعوبها إلى حتفها .

وتوضح السنة النبوية بجلاء ارتباط العقائد بالأعمال، حتى لا تتحول العقائد إلى مجرد أفكار نظرية وكأنها الهدف النهائي في ذاتها، إن المقصود اقتران العقائد بالأعمال، وتتميز الشخصية الإسلامية حينذاك عن غيرها لأنه من سماتها انعكاس العقائد على السلوك والأخلاق.

والسنة النبوية خير ما يحقق نموذج صلة العقائد بالعمل والسلوك .

وقد وفق الدكتور برغوث بن مبارك في تصوير الارتباط الوثيق بين العقائد والأعمال في سنة الرسول ﷺ فقال: (فالمنهج النبوي لا يقدم فقط الإطار المرجعي للسلوك البلاغي الدَّعَوِي، والمنهاج التوجيهي للفعل الإصلاحي، والترشيدي، بل يقدم بالإضافة إلى ذلك البناء العملي لهذه الأفكار النظرية. فالسنة أصلاً موقف عملي منهجي منظم دخل في أطراد بناء المجتمع الإسلامي الأول،

وترك للأجيال الإسلامية معيار البناء الحضاري الخاضع لتعاليم الوحي والمنضبط بتوجيهاته (١٩) .

ثم قدم جملة نماذج واقعية لهذه المنهجية

{ ففي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام «سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: إيمانٌ بالله . قال: ثم ماذا؟ قال: جهادٌ في سبيل الله . قال ثم ماذا؟ قال: حجٌ مبرور .

وسئل عليه الصلاة والسلام : (أي الأعمال أفضل ؟ قال: الصلاة لوقتها، قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قال: ثم أي؟ قال: جهادٌ في سبيل الله .

وفي النسائي عن أبي أمامة قال: أتيت النبي ﷺ فقلت : مرني بأمر آخذه عنك. قال: عليك بصوم فإنه لا مثيل له) .

وفي الصحيح في قول : (لا إله إلا الله لا شريك له ....إلخ .. قال: ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه) .

وفي الترمذي (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء) .

وفي البزار (أي الدعاء أفضل؟ قال: دعاء المرء لنفسه) .

وفي الترمذي : ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن(٢٠) .

وفي البزار (يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان علي الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟ عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما) .

وفي مسلم (أي المسلمين خير؟ قال: مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده) وفيه أى الإسلام خير؟) قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف).

وفي الصحيح (وما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر) .

وفي البخاري (خيركم مَنْ تَعَلَّم القرآن وعلَّمه)(٢١) .

ومما يسترعي الانتباه أيضـاً، أن السمت الظاهر الذي لم نلقِ له بالاً مع موجة التقليد العصرية ـ له دوره أيضاً في المحافظة على الهوية، وللقارئ نفس الكلمة التي قالها بسمارك لغليوم الثاني لمّا كان وليّ عهد الإمبراطورية الألمانية حينما أرسلوه إلى روسيا لـيمثل ألمانيا في إحـدى المناسبات، قال بسـمارك:(إنك ذاهب إلى بلاد شرقية، فإذا رأيت الشرقي المتمسك بزيّه الأصيل فاعلم أنه لا يزال على ميراث من فطرة الشرق وأصالته، وإذا رأيت الشرقي الذي لبس البنطلون تقليداً للغرب، فاعلم أنه فقد مواريثه في الفضائل، ولم يكتسب أخلاق الغرب وفضائله)(٢٢)

ولمعرفة هذا السمت ودوره الهام، حرص (بطرس الأكبر) على محوه، إذ أكره المسلمين على حلق اللحى وحـرّم عليهم ارتداء القفـاطين، وفي ظروف مماثلة في العداء للمسلمين مع مخالفة للطريقـة التي اتبعها بطرس، أصدر أتاتورك قانوناً عام سنة١٩٢٥م فرض به على جميع المواطنين الأتراك ارتداء القبعة ذات الحافة. (٢٣)

وللقارئ إحدى الصـور التي انطبعت في واقعنا المعاصـر بتقليد الفرنجـة كما يسجّلها اللورد كرومر :

يصف اللورد كرومر موقف المصري المتفـرنج وموقف المبشّرين الذين يبذلون في البلاد نشاطهم الثقافي والاجتماعي والديني فيقول :

{ إن المصري المتفرنج المتطلع إلـى محاكاة الغرب عندما يتخلى عن مـعتقدات أجداده فإنما يمضي في اتجاهه هذا . . إنه والحال هذه ـ لا يترك تلك التقاليد فحسب ـ بل إنه يزدريها ويحتقرها، إنه يندفع اندفاعاً أعـمى إلى أحضان الحضارة الغربية، دون أن يتعقل الحقـيقة التي تؤكد أن ما تراه عنناه من هذه المـدنية إنما هو مجرد الغلاف الظاهر منها، بينما أن الأصول العميقـة للأخلاق المسيحية تختبئ في القاع ومن العسـير على مقلدي الأوروبيين أن يحـصلوا عليها عن طريـق تقليد النظم الأوروبية . . }(٢٤) [١]

---

(١) الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السـويس الجزء الثاني محمد على الغتيت ط الدار القومية للطباعة والنشر سلسلة من الشرق والغرب ـ العدد ٩ .

وقد ظنَّ كرومر أن نجاحه نهائى و أن الأمه قد أصبحت طوع بنان عملية التغريب التى أدارها بدهاء .

و لكن علماء الإسلام حاصروا التغريب وذكروا أمتهم بأصالتها، ووقفوا سداً منيعاً للحد من التغريب ولازال النزاع قائماً .

وقد خدم المدافعين عن الأصالة فى مواجهة المتغربين بقوله (و من العسير على مقلدى الأوروبين أن يحصلوا عليها عن طريق تقليد النظم الأوربية) و يكفينا وصفهم بأنهم (مقلدين) لا (متقدمين) أو (متنورين) .

الكف عن التشبه بخصال الأمم الأخرى :

لقد نهى النبى ﷺ عن التشبه بالأمم الأخرى، فقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ انه قال (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون، شبراً بشبراً، وذراعاً بذراع، فقيل يا رسول الله، كفارس والروم ؟ قال: ومن الناس إلا أولئك) ؟ .

وكان علماؤنا حريصين دائماً على تنبيه الأمه وتحذيرها من تقليد الأمم، وإن كانت آفة التقليد فى تاريخنا بسبب تقصير المسلمين وضعف ارتباطهم بدينهم، فقد زاد الطين بله فى العصر الحديث حيث كان للاستعمار العسكرى والثقافى درره البارز فى فرض عقائده وفلسفاته وطرق حياته، فالظاهرة ليست بنت اليوم وعلى سبيل المثال:

يقول الآجري (المتوفى سنة ٣٦٠ هـ) :

من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل، علم أن أكثرهم والعام منهم تجرى أمورهم على سنن أهل الكتابين، كما قال النبى ﷺ ، أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم فى العمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمساكن واللباس والحليه والأكل والشرب والولائم، والمراكب والخدام والمجالس والمجالسة والبيع والشراء والمكاسب من جهات كثيرة وأشباه لما ذكرت يطول شرحها، تجرى بينهم على خلاف السنة

والكتاب وانما تجرى بينهم على سنن من قبلنا، كما قال ﷺ (٢٥)

ومغزى الحديث النبوى الشريف من النهى عن التقليد، حث أمة الإسلام أيضاً على الاعتزاز بمكانتها بين غيرها من الأمم الأخرى:

ففى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

يقول القرطبي : عزّاهم وسلاهم بما نالهم يوم أُحُد من القتل والجرح، وحثّهم على قتال عدوهم ونهاهم عن العجز والفشل، فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي لا تضعفوا ولا تجبنوا يا أصحاب محمد ﷺ عن جهاد أعدائكم لما أصابهم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أي لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي بصدق وعْدى . .

. . . ويقول الإمام القرطبي :

(وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه، لأنه قال لموسى ﴿إنك أنت الأعلى ﴾ وقال لهذه الأمة ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلي . وقال للمؤمنين ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾[1] .

ثالثاً : اللغة العربية :

هي إحدى مفردات الهوية الإسلامية فضلاً عن أنها لغة القرآن، وقد وحَّدَت الأمة طيلة تاريخها.

يبين ابن خلدون مكانة اللغة العربية في الإسلام، وصلتها الوثيقة بالملة الإسلامية وأهلها بقوله { ثم النظر في القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها، فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب . . . وهذه العلوم المستعلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها . . .} (٢٧)

(١) تفسير القرطبي ص١٤٥٨ / ١٤٥٩ طبعة دار الشعب بالقاهرة جماد الآخر ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م .

وقد تفشّت ظواهر إهمال اللغة العربية في السنوات الأخيرة بشكل ينذر بالخطر على شخصيتنا وتراثنا، ويُسَهِّل دور العولمة في ابتلاع أجيالنا الجديدة التي تتخطفها اللغات الأجنبية لاسيما الإنجليزية ـ ولا علاج لهذه النكسة المؤسفة إلا بوضع اللغة العربية في المكانة الأولى في ثقافتنا كما كان مجـدها قبل عصر الاستعمار، فإنها (الرباط المؤحّد بيننا والمكوِّن لبنية تفكيرنا والصلة بين أجيالنا) (٢٨) .

ويقول الشيخ عـبدالجليل عيسى (بقاء ذكر الأمـة عالياً ما بقيت لغتـها حية قويّة). . مستدلاً على ذلك بالآيتين :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ١٠] إذ قال ابن عباس ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي الصِّيت والشرف .

والثانية ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[الزخرف: ٤٤] ثم يستطرد قائلاً: (ولهذا كان أقوى سلاح لخصوم الإسلام والعرب هو إيقاظ اللغة العامية في كل أمة حتى تحتل مكان الفصحى، فيندثر ذكر العرب، وتتقطع صلة المسلمين كافة بكتابهم) (٢٩) .

ولا حجـة للرأي القائل بضرورة مـتابعة المسـتجدات في مـجالات العلوم والتكنولوجيا بالحرص على إتقان اللغات الأجنبيـة، وآية ذلك ـ كمثال ـ استمساك سوريا بتدريس الطب لطلابها باللغة العربية، جنباً إلى جنب مع المتابعة للمستجدات في مجال علم الطب بالغرب .

كذلك فإن تاريخ اللـغة العربية منذ فجـر الإسلام سجل حافل بنجـاحها في استيعاب الدين والثقافـة والحضارة والحكم في آنٍ واحد (واستطاعت بما وهبها الله من خصائص ومـا تهيأ لها في تاريخ طويل سبق الإسلام أن تفي بـهذه الحاجات الجـديدة وأن تنهض بالعبء العظيم فـتكون لغـة الدولة الجـديدة والحضـارة الجديدة)(٣٠) .

دور الإعلام:

نحن في عصر الإعلام والقنوات الفضائية التي ألغت الحدود ووصلت إلى أنحاء الكرة الأرضية كلها بلا حواجز، وهي سلاح فعّال لا ينكر أثره، فعلى المسئولين استنفار أجهزة الإعلام بالدول العربية والإسلامية كافة وتوحيد الخطة العامة وجعل الهدف: صدّ تيار العولمة، وذلك من منطلق إنتمائنا إلى الثقافة الإسلامية وحضارتها، ولأن قيم حضارتنا ومثلها العليا تجعلها فعّالة، لا منفعلة، مما يستوجب عناية الإعلام بالتركيز على إشعاعات نقاط التمايز من حيث تصورنا للحياة وإضفاء المعنى لها، وخلاصتها أن الحياة الدنيا دار ممر وليست بمستقر، وكما أننا مطالبون بالعمل والإنتاج وتعمير الأرض، فإننا مطالبون أيضاً بجعل الهدف النهائي ابتغاء الفوز بالجزاء في الآخرة، وهكذا يمكن المزج بين المثل العليا والحقيقة الواقعية وسد النقص المعيب في الفلسفة النفعية العملية التي تتبناها العولمة .

ومن المفيد الاسترشاد بالمبادئ العامة التي حددها الراغب الأصفهاني وفق بعض الآيات القرآنية، إن للإنسان ثلاثة أفعال تختص به وهي :

١ ـ عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره .

٢ ـ عبادته المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي الامتثال لله سبحانه في عبادته في أوامره ونواهيه .

٣ ـ خلافته في قوله تعالى ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ .

[ولا يستحق الإنسان الخلافة إلا بتحرى مكارم الشريعة، وهي الحكمة والقيام بين الناس في الحكم والإحسان والفضل، والغرض بلوغ جنة المأوى] (٣١) .

ويحسن التأكيد على هذه الميزة الكبرى لعقائدنا وقيمنا التي نقدمها للعالم لإيجاد التوازن الذي يفتقده، لأن التقدم الأخلاقي ـ في رأي ألبرت اشفيتسر ـ هو (جوهر الحضارة حقاً . . أما التقدم المادي فهو أقل جوهرية، ويمكن أن يكون له أثر طيب

أو سيء في تطور الحضارة) (٣٢) وهو يشكو مرّ الشكوى مما يسـميه (انفعالات الأمم وحماقاتها) بسبب البطالة والفقر والجوع، وتفسُّخ الحياة الإنسانية وتبددها في كل اتجاه، ويقترح العلاج في الدعوة إلى التفكير في معنى (الحياة) إذ (حينما يبدأ جمهور الناس التفكير على هذا النحو، سـتنشأ القوى التي تستطيع أن تحدث نوعاً من التوازن مع هذا الاضطراب والبؤس. وأية إجراءات أخرى تتـخذ فإن نتائجها يحيط بها الشك ولن تكون مناسبة ولا وافية)(٣٣) .

بعض التوصيات :

من ملامح العصر السـعي نحو التكتلات السياسية والاقتـصادية لامتلاك القوة والنفوذ على الصعيد العالمي، كبعض دول أوروبا التي توحَّدت اقتصادياً وعسكرياً .

في هذا المناخ حقّ علينا ـ للوقوف صـفاً واحداً كسد منيع أمـام تدفق موجات العولمة ـ إحياءٌ للوحدة السياسية من جديد بعد تحللها بإلغاء الخلافة .

وقد سبق لأحد أفذاذ فقهائنا السياسيين تقديم عدة اقتراحات بعد معاصرته لمحنة إلغاء الخلافة، وربما توقّع بثاقب نظره حيـنذاك الحصاد المرّ لهذه المحنة قبل أن تبدأ بتداعياتها المضنية التي نحياها الآن، ومعرفـته بتعذر (قيام دولة موحَّدة في العصر الحاضر ـ واقتـرح لذلك إنشاء منظمة إسلامية دوليـة) . . . وفق ثلاث مقدمات، وهي :

المقدمة الأولى :

إن المبادئ التي بنى عليها فقه الخلافة، قام على المبادئ التي توصَّلت إليها أحدث النظم العصرية والديمقراطية ـ بل تمتاز عن الفقـه العصري لأن تطبيق مبادئها مرتبط بعقيدة دينية وشريعة سماوية خالدة .

المقدمة الثانية:

إن الخلافة أنشأت في منطقتنا أعظم أمة وأقـامت أعظم حضارة شهدها العالم عندما كانت أوروبا في ظلام التخلف والجهل والحروب الدينية ونظام الإقطاع .

المقدمة الثالثة :

تحقيق وحدة الأمة الإسـلامية بإنشاء ـ عصبة أمم شرقـية ـ تتمشى مع الاتجاه العالمي نحو التكتل والتجمع . .

ويعلّق الدكتـور توفيق الشاوي قائلاً (إننا نرجـوا ممن يؤمنون بأن الوحدة هي طريق القوة والتقدم والنهضة الحضـارية أن يتدبروا آراء السنهوري واجتهاداته بكل تقدير واحترام)(٣٤) .

وإذا لجأنا إلى لغة الأرقام كأدق لغة علمية، لتبين لنا مدى قوة العالم الإسلامي وإمكانياته الهائلة، ولا ينقصه إلا الالتئـام في إطار موحّد ليواجه الأخطار المحدقة به. وقد قام بهذا الجهد المشكور المهندس الدكتور مـصطفى مؤمن مقدماً إحصائية دقيقة عن العالم الإسلامي عام ١٩٧٤م وخلُص إلى الآتي بقوله :

{ والآن، ما ظننا بدولة شامخة تحتل رقعة من الأرض مساحتها ٣٠,١٢٧,٦٠٩ كيلو متراً مربعاً، وتعدادها ٧٧٠,٥٩٥,٠٠٠ نسمة، وقوتها الضاربة البرية قوامها ٢,٩٥٧,٤٠٠ جندي وأسطولها البحرى يضم ٨٨١ قطعة، وسلاحها الجوي يتألف من ٣٨٤٦ طائرة مقاتلة وقاذفـة وناقلة، ودخلها السنوي يزيد على ٦٣٥٧٧ مليون دولار أمريكي .

وقبل هذا وبعده دولة دينها الحق والحق واحد، وقبلتها واحدة ودستورها الدائم واحد هو الكتاب المكنون .

أظن أن هذه غاية مـا يرجو كل مسلم على الأرض ويقـيني أنه لو قامت هذه الدولة الشامخة يوماً لنافست بل ناجـزت الدولتين المتعاليتين (الولايات المتحدة) و(الاتحاد السوفـيتي) على السواء فهل يمكن أن يتحـقق ذلك الحلم الجميل الذي يداعبنا في غمرة من اليقظة، أو في نوبة من الرقاد، إنه ليس حلماً، لقد كان حقيقة بالأمس وأراه اليوم غير بعيد المنال، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١](٣٥)

هذا، بالإضافة إلى خطوات أخرى ضرورية لزيادة المناعة لقدرات الأمة اقتصادياً

و ثقافياً وعسكرياً:

فعلى الصعيد الاقتصادي، لابد من إقـامة السوق المشتركة بين الدول الإسلامية على غرار دول أوروبا للحـماية من غزو (العولمة) الاقـتصادي المدمّر لاقـتصاد الكيانات الصغيرة المفككة .

وعلى صعيد التعليم، لابد من صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الإسلاميـة، أي أن يكون الجو العام للثقافـة والتعليم هو جو العقـيدة والمفاهيم الإسلامية، مع عـقد الموازنات بالنظر للأنظمة الثقافيـة الأخرى التي غزت العالم الإسلامي لتتضح أصـالة الأمة ومعالم هويتها الخاصـة عبر عقيدتها وشـريعتها وأخلاقها ولغتها وتاريخها وغاياتهـا في الحياة ويصبح التنفيذ العملي سهلاً بالإفادة من وظيفة اتحاد الجامعات الإسلامية للعمل على أسلمة مناهج العلوم الإنسانية وفق التصورات الإسلامية .

واقتراحنا هذا لا يصدر من فراغ، إذ كان لأستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان ـ رحمه الله ـ فضل السبق بما قدّمه بكتـابه عن أسلمة العلوم الإنسانية ومناهجها، إذ يحث فيه على فعل أهل الصين واليابان أمام الغزو الثقافي الغربي ، ثم تساءل :

(هل استطاعت قوى الغرب المسيحية أن تضيّع معالم الشخـصية الصينية أو اليابانية)؟

ثم يبيّن أن القياس مع الفارق بين وثنية أديان الشرق وتوحيد الإسلام، محدّداً الموقف الصحـيح إزاء تيارات الثقافـة الغربية المضللة المعـادية للإسلام بأن يكون الصمود أمامها (موازياً تماماً لتمسكنا بحركة التقدم الحضاري التي لن تتم في شقها المادي إلا بالأخذ عـن الغرب في تخيّـر وحذر وذكـاء، كمـا فعل اليابـانيون والصينيون)(٣٦) .

كذلك يرى أستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان ـ وهو يعالج الموضوع نفسه أنه بعد إجبار الشرق الإسلامي جيوش الغرب على الجلاء، (إلا أن الغرب استطاع أن يثبت ركائزه ،حرابه المسـمومة في جسم الأمة الإسلاميـة عن طريق ما نعرفه من

مؤامرات الغزو الفكري الثقافي للإسلام وأقطاره، وهذه هي أخطر مشكلة يواجهها الإسلام المعاصر)(٣٧)

وفي إجابته عن السؤال :

بماذا ندرس الفكر الغربي ومناهجه ؟

يعرض أولاً للميادين التي شملها الغزو الفكري إذ لم يقتصر على العلم والتربية والتعليم والثقافة والفن فحسب، بل لقد حمل معه بالإضافة إليها تيارات مسمومة من التبشير المسيحي، وكذلك موجات عارمة من الإلحاد والدعوة إلى معارضة الأديان وتثبيت ركائز النزعة العلمانية .

ثم يرى أنه من الضروري أن نستعرض الأسس الفكرية لحضارة الغرب متمثلة في مذاهبه الفلسفية مع الحرص على ألا نجعل من أنفسنا أرقاء لهذه الحضارة، فنلغي شخصيتنا القومية الإسلامية المتفردة، كما لا ينبغي التقوقع وصم الآذان عن مظاهر التقدم الحضاري (٣٨) .

وينادي بفتح باب الاجتهاد في الفروع محذراً من وضع الأصول أو العقائد الإيمانية على بساط البحث في أي حوار من هذا القبيل، فهذا طريق سبق للفرق الإسلامية الضالة أن سلكته فخرجت منه بالخسران المبين كما حدث للإسماعلية والدروز والبهائية (٣٩) .

وعلى الصعيد العسكري، يلزم توحيد جيوش الدولة الإسلامية، قيادة وتدريباً وتسليحاً، لأن المسئولية مشتركة بينها جميعاً للدفاع عن كيان الأرض والسكان والأعراض أمام قوى غاشمة ظالمة لا ترعى إلاً ولاذمةً، وما لم تملك دول الإسلام القوة اللازمة، فربما كانت الخطوة التالية للعولمة الإقدام على الغزو العسكري إذا ما فشلت أدواتها في تحقيق أهدافها .

تم الكتاب بحمد الله

قائمة مراجع [المقال]

(١) يُنظر مقال (الانفراط العظيم) بقلم د/ جعفر شيخ إدريس بمجلة (البيان) ويصدر من المندوب الإسلامي بلندن ـ العدد ١٤٢ جمادي الآخرة سنة ١٤٢٠هـ أكتوبر سنة ١٩٩٩م، لعالم الاجتماع الأمريكي فوكوياما صدر بعد عشر سنوات من كتابه الأول (نهاية التاريخ) وتراجع فيه عن فكرته الأولى، وقدَّم بالكتاب الجديد ملخصاً للحقائق الإحصائية التي تناولت ازدياد الجرائم وتفكك النظام الاجتماعي ونسبه الأولاد الغير شرعيين .. إلخ مما ينبئ بفشل المشروع الذي بشر به من قبل.

(٢) جمال حمدان (استراتيجية الاستعمار والتحرير) ص٣٠ كتاب الهلال ـ فبراير١٩٩٩م .

(٣) روجيه غارودي (الولايات المتحدة طليعة الانحطاط) ص,١٦

(٤) شينتاروا إيشهارا (اليابان لم تقل لا ـ صراع المستقبل بين الكبار)ص٣٤/ ٣٥ ترجمة هالة العورى ط يافا للدراسات والأبحاث بالقاهرة سنة ١٩٩١م .

ويُنظر كتابنا (الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي) دار الدعوة بالإسكندرية١٩٩٨م .(نقد البرجماتية من ص٢٠٦ إلى ص٢١٦) .

(٥) منها (الجات) وهي منظمة التجارة العالمية، وهي بحسب كلمات الرئيس الأمريكي (تعزيز موقع زعامة الولايات المتحدة للإقتصاد العالمي الجديد)، وهي إحدى آليات العولمة لممارسة العنف الثقافي (ص٧٢) .

وص٩ من كتاب (الجات والتبعية الثقافية) للدكتور/ مصطفى عبدالغني ط الهيئة العامة المصرية للكتاب (مكتبة الأسرة) سنة١٩٩٩م .

(٦) نفسه ص٧٠، كما يصفهم المؤلف بأنهم عملاء متخصصون في إعادة إنتاج وتوزيع الأيديولوجية الخارجية .

(٧) تعريف عبدالإله بلقريز بحثه المقدَّم لمؤتمر (العرب والعولمة) في بيروت سنة

١٩٩٧م نقلاً عن المصدر السابق ص٧٠/ ٧١ .

(٨) هاني ـ بيترمارتين وهارد شومان ترجمة د/ عدنان عباس ومراجعة وتقديم د/ رمزي زكي (فخ العولمة) ـ الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية ص٣٣٠ .

(٩) نفسه ص٣٢٨/ ٣٢٩ عالم المعرفة بالكويت جمادي الآخرة ١٤١٩هـ ـ أكتوبر سنة ١٩٩٩م .

(١٠) مقال بعنوان (تسويق و«تزويق» العولمة) مراجعة نقدية لكتاب (توماس فريدمان) «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون» بقلم د/ محمد عبدالفضيل (مجلة الهلال) فبرايرسنة٢٠٠٠م وكان عنوان غلافها { العولمة .. ديانة جديدة }!

(١١) مقال بعنوان (ترويج العولمة) والدور « التايواني » لمصر بقلم صلاح الدين حافظ ـ الأهرام ٢/ ٢/ ٢٠٠٠م

(١٢) ص٨١ من كتاب (الجات والتبعية الثقافية) د/ مصطفى عبدالغني .

(١٣) أحمد حمزة (لواء الإسلام) رجب سنة١٣٧٥هـ ـ فبراير سنة١٩٥٦م .

(١٤) من هذه المنظمات التي انعقدت أخيراً في القاهرة (منظمة الوحدة الأفريقية لتعزيز العلاقات التجارية والتعاون بين دولها (الكوميسا) فبرايرسنة٢٠٠٠م، كذلك مجموعة الدول النامية الأعضاء في مجموعة الـ٧٧ التي ستجتمع في كوبا في أبريل سنة ٢٠٠٠م لتقويم انعكاسات العولمة على اقتصادها {الأهرام في ١/ ٢/ ٢٠٠٠م}

(١٥) مقال للدكتور محمد محمود ربيع بالأهرام في ٣/ ٣/ ٢٠٠٠م .

(١٦) مقال بعنوان (العولمة وخصوصية الشرق الأوسط) بقلم محمد سيد أحمد الأهرام في ٩/ ٣/ ٢٠٠٠م، وهو مضمون محاضرة ألقاها في (معهد العالم العربي) بباريس قبل هذا التاريخ ببضعة أيام .

(١٧) د. عماد الدين خليل (العقل المسلم والرؤية الحضارية) ص٤٣/ ٤٤ دار الحرمين للنشر ـ القاهرة سنة١٩٨٣م .

(١٨) عبدالحميد صدِّيقي (تفسير التاريخ) ص١٤٥ .ترجمة د/ كاظم الجوادي . ط دار القلم بالكويت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

(١٩) محب الدين الخطيب (منهج الثقافة الإسلامية) ص١٩ هدية مع مجلة التوحيد ذو الحجة سنة١٤١٩هـ .

(٢٠) أرنولد توينبي : موجز تاريخ العالم جـ٢ص٤٠٢ .

(٢١) مقدمة ابن خلدون ص٤٣٦ طالمكتبة التجارية بمصر - بدون تاريخ .

(٢٢) محمد المبارك (فقه اللغة وخصائصه العربية) ص٢٣٣ ط دار الفكر العربي - بيروت سنة ١٩٧٠م .

(٢٣) المصحف الميسر للشيخ عبدالجليل عيسى ط دار الشروق ١٣٩١هـ .

(٢٤) فقه اللغة ص٢٩٤ مرجع سابق .

(٢٥) الراغب الأصفهاني (الذريعة إلى مكارم الشريعة) ص١٨ .

(٢٦) ألبرت اشفيتسر (فلسفة الحضارة) ص٣٦ . ترجمة د/ عبدالرحمن بدوي ومراجعة د/ زكي نجيب محمود المؤسسة المصرية العامة .

(٢٧) فلسفة الحضارة ص٨٢ .

(٢٨) يُنظر كتاب (قسمات العالم الإسلامي المعاصر) ط دار الفتح بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٢٩) محمد المبارك (المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي - واقعها وعلاجها ص١٥ دار الفكر - بيروت .

(٣٠) د/ محمد على أبوريان (أسلمة المعرفة - العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية) ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة١٩٩٧م .

(٣١) الذريعة إلى مكارم الشريعة الراغب الأصفهاني، ص١٨ .

(٣٢) نفسه ص٣٦

(٣٣)نفسه ص٨٢

(٣٤) لمزيد من الفائدة يرجى الاطلاع على هذه الدراسة المتميزة - وينظر مقدمة

كتـاب « أصول الحكم في الإسـلام » بقلم د/ توفيق الشـاوي (مكتبـة الأسرة ١٩٩٨م)

(٣٥) قسـمات العالم الإسـلامي المعاصر د/ مـصطفى مؤمن ط دار الفـتح بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٣٦) الإسلام في مـواجهة تيارات الفكر الـغربي المعاصر (١) مـوقف الإسلام من الماركسية ص٢٢ دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٨٥م .

(٣٧) نفسه .

(٣٨) ص٢٢-٢٣ باختصار

(٣٩) نفسه / ص ٤٣ .

* * *

المؤلف في سطور

- ولد بمدينة الإسكندرية في ١٠ / ١١ / ١٩٣٢ م .
- ليسانس الآداب (قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية) من جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠م بدرجة جيد .
- ماچستير في الآداب من نفس الجامعة عام ١٩٦٧ بدرجة ممتاز .
- دكتوراه في الآداب من نفس الجامعة والقسم عام ١٩٧١ بمرتبة الشرف الأولى .
- شغل وظيفة مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة اعتباراً من ١٧ / ٥ / ١٩٧٢ .
- أعير للتدريس بجامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية في الفترة من ٦ / ١١ / ٧٥ إلى ٢٠ / ٢ / ١٩٨٠ .
- عُيِّن أستاذاً مساعداً بتاريخ ٢ / ٥ / ١٩٧٩ بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم . جامعة القاهرة وتدرَّج حتى أصبح أستاذاً ورئيساً للقسم .
- اتجه للتدريس بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام اباد عام ١٩٨٧ .
- اتجه للتدريس بجامعة أم القرى بمكة المكرمة من عام ١٩٨٧م وحتى ١٩٩٢م.
- حائز على جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية ١٤٠٥ هـ .
- حالياً أستاذ متفرغ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة .

من مؤلفات الأستاذ الدكتور / مصطفى حلمي

١ -(نظام الخلافة في الفكر الإسلامي) ومختصره (نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة) .

٢ -منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين .

٣ -ابن تيمية والتصوُّف .

٤ -مع المسلمين الأوائل في نظرتهم للحياة والقيم (الزهّاد الأوائل) .

٥ -قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي .

٦ -مناهج البحث الإسلامي في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب.

٧ -السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية .

٨ -أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة .

٩ -معرفة الله عز وجل وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية .

١٠ -الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي .

١١ -الصحوة الإسلامية عودة إلى الذات .

١٢ -إسلام جارودي بين الحقيقة والافتراء.

١٣ -أضواء على ثقافة المسلم المعاصر.

١٤ -مختصر العقيدة الإسلامية (للسفاريني) .

١٥ -الإسلام والأديان -دراسة مقارنة .

١٦ -الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام .

١٧ -صيحة مسلم قادم من الغرب (إسلام محمد أسد) .

١٨ -الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية .

١٩ -التقديم والتعليق لكتاب: «النظرية السياسية والاجتماعية لابن تيمية» تأليف هنري لاووست وترجمة الأستاذ محمد عبدالعظيم.

٢٠ -مشكلات الشباب المسلم وكيف نتوقاها .

٢١ -حضارة العصر ... الوجه الآخر .

مع مقال كيف نصون الهوية الإسلامية في عصر العولمة .

الفهرس


دار نشر الثقافة
١٣ شارع حسبو ـ منشا ـ محرم بك